الرواية الفائزة بالجائزة الثانية لمسابقة مانديلا للآداب ٢٠٢١

الكمامة البيضاء والقفاز الأزرق

داود سلمان الشويلي

الكمامة البيضاء والقفاز الأزرق

داود سلمان الشويلي

رواية

مانديلا للنشر والإعلان
MANDELA POUR L'EDITION ET LA PUBLICITE

الكتاب: الكمامة البيضاء والقفاز الازرق.

تأليف: داود سلمان الشويلي.

التنسيق وتصميم الغلاف: القسم الفني لشركة مانديلا.

الطبعة الأولى: ٢٠٢٢م.

رقم الإيداع القانوني: ٢٠٢٢/041م.

الترقيم الدولي : 7 - 194 – 62 – 780 – 5 – 973 **ISBN**

© جميع الحقوق محفوظة لا يسمح بنسخ أي جزء من هذا الكتاب ، بأي شكل من الأشكال وبأي صبغة أو التصرف فيه بأي أسلوب من الأساليب دون إذن خطي مسبق من الناشر والمؤلف معا

الناشر: شركة مانديلا للنشر والإعلان والترجمة

أنجمينا _ الدائرة الثانية - حي فوجي - شارع لاقونا.

هاتف: 0023592044242-0023563636666

واتس آب: 0023563636666

mandela.edition@gmail.com

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي شركة مانديلا للنشر

الاهداء

إلى روح شقيقتي الكبيرة (نذيره) التي توفيت من زمان

تقديم

الخطاب السردي التوثيقي بين التصويري والمتخيل
في (الكمامة البيضاء والقفاز الأزرق) للروائي داود سلمان الشويلي

تبلورت الرواية الوثائقية بعد الحرب العالمية الاولى، وأثمرت حداثتها بعد الحرب العالمية الثانية، ولدت من رحم الكوارث والاقتتال وتسّيد الموت على ظهر الحياة، ارهقت الانسان بهذا الثقل. انتقلت الرواية من البنية الكلاسيكية والرومانسية الى الرواية الوثائقية، بمستوى الخراب الهائل والكوارث الانسانية المذهلة. فتتت خيال السرد الروائي واستسلم الى غرائبية الموت وبشاعة الصدمة، فحطمت قدراته التخييلية. اصبح الواقع هو الخيال بعينه، الانسان امام مصير مسلوب وماعاد فاعلا في صناعة الحياة وباحثا عن حريته في زمن تحكمه غلبة الحرب وبطش الدكتاتوريات الفاسدة. بالاضافة الى محاولة الرواية الجديدة خلخلة قواعد انساق الرواية الرومانسية السائدة انذاك. وتأسيس آليات سرد بمستوى الأحداث التي أفرزتها الحروب. وتعتمد الرواية الوثائقية، على وثائق

ساخنة في النص السردي، ولايعني غياب الروائي واقتصار دوره على تشكيل الحوادث المرئية حسب سياقات السرد. كما اشار اليه الكاتب الأمريكي (ترومان كابوتي) " إلى أن كل ما ورد في الرواية من أول كلمة إلى آخر كلمة هي أحداث ووثائق حقيقية ولم يضف أي شيء منه.".

لقد خاض الروائي داود سلمان الشويلي تجربة صعبة على الروائيين، ولكن خزينه المعرفي السردي، أعاد للرواية هيبتها، لأن كتابة رواية توثيقية لهي أشد وطأة وحيرة من كتابة رواية بلا معنى، وأكثر جهدا واحراجا لحداثة أدوات السارد. من الصعوبة أن تمسك بيدك الاشياء الواقعية وعليك ترتيبها ترتيبا تاريخيا وحقيقيا ومقنعا وفي اليد الأخرى أجنحتك التي تحاول الافلات لتحلق بالمعنى. وان الصعوبة البالغة تكمن في القدرة على سرد الوقائع وتشكيلها وصياغتها دون أن يؤثر على حقائقها وتاريخها وواقعيتها وهنا تحد واضح للروائي من أجل عدم الوقوع في منحدر المباشرة وتحويل أدواته الى رصد المؤرخ للوقائع. ولايمنع الروائي من استغلال غرائبية الأحداث ودهشتها الى عمل روائي متكامل يجمع بين المهارة الفنية ومصداقية الأحداث. لأن الرواية الوثائقية تعتمد أحداثا واقعية بانساق خلاقة، ترسم نمطا حيا للأحداث، بروح اشراقية

مثيرة ومشوقة. وتتألق وسط الأحداث الاستثنائية التي يمر بها مجتمعنا من أحداث مرعبة ومفاجئة ودراماتيكية، والذي سيكون للخيال موقف وسط زوبعة الدهشة والاستغراب والحطام والدمار أو المراقبة عن بعد. بين الانغماس في الأحداث التي توالت مرعبة، وبين خيال يسعى لتخفيف الألم الانساني، ونحن نعيش عصر الموت الزؤام سواء كانت نتائج حروب أو اقتتال أو أمراض. والفقر وحده سؤال دبق على شفاهنا، أكل هذا الجفاف ينوح على ضفاف الفرات ودجلة ؟

ان هيمنة وسلطة الفايروس كما في الحروب، تعطيل للذاكرة الخلاقة، حتى ان أعظم الروايات كتبت ما بعد انتهاء الحروب. الرواية تحتاج الى مخيال فارس جامح. كيف لمصاب بالصدمة أن يمتطي ظهر خياله بإسترخاء ليصل الى مساحات متناهية من النار أو الدم أو الموت ؟ داود الشويلي كسر رتابة الأحداث أو مغناطيسية التأثير المباشر، ولم تخيفه أقراص النار. فكانت ردة فعله الابداعي، رواية تحتضن غرابة ماحدث، ليعيد صياغة الخطاب بمستوى الصدمة.

عنوان الرواية ينقلك مباشرة الى نفق الفزع والخوف، موت يتسلل خفية ويستهدف مشاعر التقبيل والاحتضان والتواصل. ماعاد التوديع مشهدا مألوفا لفراق الأحبة، ودفنهم في أماكن نائية قصية منفردة متباعدة،

التباعد في الحياة والموت.. فقدان مبهم غامض وسريع .. الكمامة والكفوف كأنها أشباح تجوب دروب الحذر:

" كان الطبيب الخافر الذي استقبلهم في المستشفى، يضع كمامة بلون أبيض على أنفه وفمه، ويرتدي قفازات بلاستيكية بلون أزرق، كطبيب الصدرية الذي حوّل هذا المصاب إلى المستشفى، وكان هذا المنظر هو ما شد انتباه أحمد والحاج ريحان. عائلة الحاج ريحان التي اصيبت بفايروس كورونا، بسبب ملامسة ابنهم أحمد العائد أثناء تفشي الجائحة من دولة مجاورة.".

كانت حالة الحاج ريحان أول حالة مرضية في المدينة. مصابا بفايروس كورونا أو كوفيد- ١٩:

"وقد لزمته نوبة سعال حادة وقوية جدا، راح يسعل كالمسلول بتواصل حتى إزرق لون وجهه، فيما كان بلعومه جافا، وازدادت درجة حرارة جسمه حتى شعر إن جبهته أصبحت كالبركان سخونة، كان عمره أكثر من ستين سنة ونيف، عندها انتبه ابنه الكبير "أحمد" الذي وصل إلى العراق قبل ثلاثة أيام، بعد أن كان في سفرة تجارية إلى بلاد مجاورة.".

الذاكرة لاتنسى مشاعرها الساخنة. تتلاشى آثار الأحداث السطحية.. أشار الروائي داود سلمان الشويلي في مدخل الرواية " لن يبقى في

الذاكرة سوى ما نريد نسيانه". قول مجهول هو الآخر لايعرف صاحبه قيل بأنه لعجوز ربما لأن العجائز وحدهم يجيدون النصح لعدم قدرتهم على بذل جهد بدني. ولكنها مقولة مفتوحة المعنى تحرك ذاكرتك. فعلا ان الذاكرة الأصيلة لاتحتضن إلّا المواقف الصادقة العميقة الجادة وليست السطحية والهامشية. الذاكرة هي عنوان الانسان وهويته وتاريخه. ذاكرة شفاهية أو مدونة. انها الورقة التي حتى وان أكلتها ارضة الزمن حتما ستبقى عالقة في قلبها كلمات نابضة ساخنة.

نقلنا الروائي الشويلي من ذاكرة تعزّي نفسها بعدم امكانية نسيان ماتريد نسيانه الى اجتياح المغول بغداد وقتل أهلها وتعفن الهواء وانتشار داء الطاعون. وتعطل الجوامع والمساجد والجمعيات مدة شهور في بغداد." فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون".

تتكون الرواية من اثني عشر فصلا.. ابتدأ الفصل الأول من حيث انتهى مدخل الرواية وهو وباء الطاعون لتبدأ جائحة كورونا – فيروس كوفيد– ١٩، وباء جديد قلب موازين الحياة وغيّر ألوانها وطبائعها وعلاقاتها العائلية والاجتماعية، ورؤيتها لرجال الدين والسياسة وهزت قواعد التقاليد الاتكالية التي اعتمدها الانسان في محنه.. كرفانات بيضاء

تحولت الى ردهات لعلاج المصابين بالوباء بدلا من المستشفيات لتزاحم المصابين:

"وظل الحاج يهذي، فيما كل شيء في الغرفة يوحي بالمرض، السرير، الفراش، الأغطية، وحتى لون جدران الكرفان كلها بلون الثلج، وجهاز التنفس الاصطناعي المركون جنب السرير وهو يضخ الأوكسجين إلى أنف المريض دون توقف، كان لونه أبيضا كالثلج النازل من السماء، كل شيء في هذه الغرفة التي بابها من الخشب أبيض، حتى الإنارة بيضاء".

الروائي يسعى لخلق بنية سردية وفق أنظمة فنية متخيلة لواقع معاش. "حيث تمر أمامه من بعيد أشباح كثيرة لم يتبيّنها الحاج جيدا، فيما لو رفع رأسه قليلا لرأى نجمة بعيدة في السماء تومض وتنطفئ بسرعة مثل سرعة إنزال رأسه على الوسادة".

الروائي يمتلك السلطة المطلقة، في تنسيق أحداث الرواية وشخوصها هي مملكة الروائي التي يحكمها ويدير شؤونها وتخضع لتنظيمه. وهوالذي يحدد نظام السرد الذي يخلق واقعا حقيقيا أو متخيلا واعادة بنائه وفق سياقات سردية متحولة من الثابت الى الحركة والواقع الى

متخيل، والوثائق الى رؤى مستحدثة، الواقعية هي مادة الروائي لتتحول الى عالم نصه الجديد. كان الحاج ريحان يسكن في مدينة:

" تقع على التخوم الأمامية للصحراء الغربية الممتدة حتى الحدود العراقية السعودية، عادية ككل مدن الجنوب العراقي منذ السومريين إلى يومنا هذا، مناخها قاري، شتاء بارد وصيف حار، ومغبرة بالتراب في أغلب فصول السنة، حتى سماها بعض ظرفائها "مدينة الغبار" على وزن "مدينة الضباب".

من المؤكد انها الناصرية. وأكثر المناطق التي استحوذ عليها الفايروس هي سوق الشيوخ المدينة التي لا تستغني عن التواصل والعناق فيما بينهم حسب بيئتها المتماسكة. ربما ان الفايروس استهدف أكثر الناس حبا للخير، وأكثرهم طيبة ووداعة واتكالا على الله بالفطرة والسماحة. وأكثرهم عشقا للطبيعة والناس الذين لايستبدلون الأجواء الطبيعية المفتوحة، الخضرة والهواء النقي وتامل الأشياء، والسمر، بالمكوث في بيوتهم اعتكافا، اتقاء من الوباء. حتى ان المقاهي ازدحمت أكثر من ذي قبل. " قال الطبيب الأول:

– لقد أخبرني ابنهم سلام أنه لامس ابنة الجيران، واسمها نجلاء، عندما كانا فوق سطحي دورهما، لقد كان يحبها، وأخبرني أنه قد قبّلها من

فمها، إنها لغة العشاق وهم يسرقونها من الوقت، أليس كذلك أيتها الطبيبة؟ علينا أن نحجر على عائلتها كلهم.

كان الطبيب الأول والطبيبة الشابة مخطوبين لبعضهما، وكان كثيرا ما يمازحها بمسألة تتعلق بالحب، والهيام، والعشق.

ضحكت الطبيبة التي تعلّق صليبا على صدرها هي الأخرى، وقالت:

– سأتدبر الأمر مع المفرزة الصحية ولن أذكر ذلك لهم.".

الروائي داود سلمان الشويلي في رواية (الكمامة البيضاء والقفاز الأزرق) اعتمد الوثيقة والحدث المرئي المعاش في تشكيل عالمه الروائي، وظّف الوثائق والأحداث المؤرشفة، ليعيد خلقها برؤية فنية واسلوب سردي يحفز المتلقي على سبر أغوار الأشخاص وما تؤول اليه الأحداث. وان من مزالق هذا الاسلوب السردي الذي يحاول الكثير من الروائيين تجنبه، هو طغيان قوة الحدث وهيمنته على مفاصل السرد وسياقات الخيال في البناء الفني:

"– أنا وحيد ولا أملك سوى الصبر على ما مر بنا من محنة، ومأساة، وأحزان، منذ أن وقعت عائلتي بين براثن كورونا، وفقدنا كبير العائلة، جدّنا الحنون، وما زالت العائلة محجور عليها في المستشفى لغاية التأكد

من انهم غير مصابين بالفايروس. فرغ تفكيري من أية أفكارسوى فكرة موت جدّي ومرض العائلة.".

كما ان الزمان والمكان سيكون له السطوة، ويقيد انطلاق الروائي بأجنحة الخيال ليكبله برباط التوثيق، مما يحجم دوره في بصمة الدلالات التي غالبا ما يسعى الروائي الى بروز آثارها على ملامح الأحداث والشخوص خارج زمان ومكان أواصر التوثيق، أي ان الروائي يسعى بطبيعته الى معاكسة واقع التاريخ ليحيله الى دلالات وايماءات ورموز بإستخدام لغة شعرية محلقة خالقة صورا أكثر حيوية، ان حواس اللغة في السرد التوثيقي لاتعمل بكامل طاقاتها.

هل خذلت اللغة أصابع الشويلي السردية والزمته المكوث في رحاب اللغة المباشرة؟

هل استطاع الروائي أن يبتعد عن تحميل الرواية دلالات تربك مسارها التوثيقي الانساني ؟

كل العالم عاش أجواء الفايروس المخيف وخاطب شخوصها وحاور نفسه بذات الطريقة التي توالت في سياقات السرد. انها وثقت تاريخ تحولات جذرية، الاجتماعية والنفسية والسياسية التي لامست الرواية مغاليق الانسانية في نكوص اعتباراتها وانحطاط مسؤولياتها. وثقت

مواقف الأشخاص والجماعة وتحولات المجتمع، من وقائع معاشة مرئية الى نص لايخلو من لمساته المتخيلة وحريته في صياغة الأحداث الموثقة والتقارير الصحية وردود المواقف الاجتماعية والسياسية:

" كانت عيون العائلة منصبة على ساحة التحرير، ولم تغب عنها لحظة واحدة، وكان أحمد يعرف أخبار الساحة عندما يعود إلى البيت من ابنته نوال.".

عائلة منكوبة بوباء فايروس كورونا والوباء السياسي الذي هو أكثر فتكا من الأول، والذي استشهد فيها أحد ابنائها في ثورة تشرين احتجاجا على السلطة الفاسدة.

واعتقد ان الروائي حاول أن يعيد صياغة الخطاب الانساني من الوصفي والتصويري الى اعادة خلق الواقع، واستمرار الرواية تنسج احداثها بعد انتهاء آخر سطر من الرواية، ويتحول شخوص وأحداث الرواية مدلولا ، والخطاب المتخيل دالا، ولم تنتهي هذه العلاقة بين الدال والمدلول بانتهاء الرواية وهذا يذهب باتجاه الحداثة. وهي اعادة صياغة الاشياء، اعادة تدوير المعنى، واعادة تجديد الخطاب.

توظيف الوقائع وصياغتها واعادة خلقها وبنائيتها الخاصة. الروائي يبحث عن حرية حركة الوقائع واعادة تفعيل المعرفة ويجتهد في ايصالها

وفق سياقاته السردية وليس وفق خطاب الحقائق، معتمدة الاشارة التوصيلية المباشرة. وظيفة الروائي هي اعادة ترتيب الواقع. والبحث عن منابع الحركة والضوء في تفاصيله.

في هذه الرواية، وعلى الرغم من محاولة السارد أن تكون ذاته بعيدة، مكتفيا بالأحداث الصادم ، لكن فايروس كورونا، والفايروس السياسي، اربكا السارد وماعاد يسيطر على انفعالاته، في أروقة الرواية. وظل مشدودا بين مايحدث في الواقع وبين ما يصهل في ضميره وهو يراقب هذا الانحدار الكبير، فلم يتمكن من الزام نفسه بالروي. صراع بين الوعي الجمعي المشوب بالخوف، وبين الوعي الذاتي المحتج، رغم انه كان يميل الى تجسيد الحقائق في زمن كورونا شاهدة تاريخية توثيقية لانتاج موقف في زمن انحدرت فيه الأواصر واللزوميات.

فايروس كورونا لم يصب الآلاف في مرض أو مقتل بل شل قدرات الآلة وماعاد نبض يورق في جسد الحياة التي تشرئب بأعناق الأمل الى سواحل الرفاهية والعيش الآمن. كل شئ أصابه الوهن وحياتنا نحن الأصحاء أو المصابين أو المتعافين في محل انجماد ولانعرف الى اين تسير بنا قافلة الوباء الذي جدد نفسه منذ أيام الكوليرا أو الهيضة أو سارس وغيرها.. الفايروسات هي رسل منذرة كما يصفها الكثير من

الرجال الذين كسدت بضاعتهم الرخيصة حين كانوا يتاجرون بالمشاعر الغيبية التي لاتستطيع أن تصدقها أو تكذبها. الآن نحن على يقين ان أمورنا لاتستقيم بالدعاء وحده انما علينا أن نتسلح بالوعي. الوعي سفينة تقلنا الى ضفة الخلاص تدفعها عناية الله وحفظه. رحمة الله شراع لايتمزق وسماء لاتخذل الربان، واشراقة ترمم الأمل. لا كما يغذينا الفكر الاتكالي الذي يجرد العقول من نفحة الله العظيمة وهي الفكر الخلاق:

" – وماذا أفحص؟ أنا غير مصاب، وأنا أصلي وأصوم، والملّا يشهد بذلك.

رد الموظف الصحي، رحيم ضاحكا:

– ونعم بالله، وأنا أشهد لك بذلك، أنت تصلي وتصوم، وهل هذا يكفي أمام هذا المرض؟ المرض شيء دنيوي، يصيب الإنسان الذي يصلي، والذي لا يصلي، فكيف بالحيوان والنبات اللذين لا يصليان، ولا يصومان؟ وكان عليك أن تراجع المستشفى ليتأكدوا من عدم اصابتك بهذا المرض.".

من المؤكد ان هذا الوباء سيخلق منّا كائنات أخرى أكثر تروّي وتأمّل ومراجعة، سيختلف عما كنا عليه قبل ظهوره، وسيعتمد مستقبلنا خاصة نحن العرب الذين نبحث عن تخدير يعطل حواسنا ويلزمنا الركون الى

اللامبالاة. ستكون قفزة نوعية دفعنا ثمنها نحن البشر على مستوياتنا المختلفة.

هنا مالذي يفعله الروائي. هل يستعين بخيال السارد الجامح لينتج لنا عوالما موازية لما حصل من رعب وخوف وترقب ؟ أو يدع قلمه يتعكز على أمكنة مألوفة وقلمه يلامس وجوه المرعوبين الشاحبة ؟

تميزت أغلب كتابات الشويلي الروائية، بالواقعية الخلاقة المتعددة أساليبها وانساقها. نصوصه الروائية مشيدة على مشاهداته الواقعية وتجارب نجد لها امتداد حقيقي في واقعنا سواء كان في زمن مضى أو حاضر معاش، وما يفرزه المجتمع من صراعات محتدمة مبني على أسس الغرائبية في السلوك أو الادهاش الصوري المفاجئ أو الصادم لما تؤول اليه الأحداث. ومن أجل أن يقترب من القاري لابد من اقناعه بمصداقية أحداث ووقائع. فقد اعتمد على سرد الوقائع غير المرتبطة بالايهام لقد استعان بأحداث الواقع بدلا من السرد المتخيل الذي يخلخل سرد الوقائع الموثقة، في البعض من مواطن سرد الأحداث. ان على عاتق الروائي مسؤولية مهنية خطيرة. هي أن تكون المادة أو أحداث الرواية التي اعتمدت على الصور الحقيقية والأفعال المعكوسة بمرايا الواقع أكثر تأثير من لحظة معايشتنا أو تصورنا لها.. هنا المعظلة..

هنا التجربة التي قد تخذل الروائي للعبور الى قناعة المتلقي وانسجامه وتماهيه مع أحداث الرواية، عندما يكون على عجلة من أمر السرد.

لقد جاهد الروائي الذي لم يقف عند سرد الأحداث والوقائع، أو اكتفائه بالوصف، انما كانت أدواته متحفزة من خلال السرد الخلاق، وليس المنهج الوثائقي الوصفي الاعلامي أو البحثي. كان يجهد نفسه في ديمومة الانفعالات وتواصلها وتغلغله في مكنونات الشخصية ودواخلها لتؤثر على تلقي القاري من خلال شخصياته الروائية التي حولها من شخصيات واقعية الى شخصيات روائية، مستعينا بخيال شعري في رسم مساراتها أو طريقته الوصفية أو التحليلية أو الاستنباطية خاصة في بدايات الفصول، مداخل شعرية تحاول جاهدة أن تلبس السرد ملامح اللغة المضمرة لدلالات أكثر عمقا من تأثير الوصف والسرد الواقعي للأحداث ليمنحها جمالية لغوية وثراء تخيلي، وهذا ماجعل الروائي بحاجة ماسة اليها لتحويل خامة الواقع المعاش، أو تحويل صلصال المادة الواقعية الجافة الصلبة، من خلال تداخل المهنية الروائية مع الوثائقية أو التعبيرية الواقعية.

وهنا نسال هل استطاع الروائي أن يولّد لنا أحداثا مبهرة أو شخصيات روائية مؤثرة من رحم الواقعية؟

" عندما سألته نوال في الهاتف المحمول وهي ترقد بمفردها في غرفة الحجر، قائلة:

– لماذا لا تبقى في بغداد لإدامة زخم الثورة؟

رد عليها قائلا:

– الحياة أهم من الثورة، فلولا الحياة التي فينا تنبض بحرارة لما كانت هناك ثورة، إننا ثائرون لأننا أحياء، وقد بلّغنا كل الثائرين بضرورة مغادرة ساحة التحرير للحفاظ على حياتهم، وقد ذهب الكل لبيوتهم، إن كان ذلك في بغداد أو في المحافظات.

سألته مرة ثانية:

– وأين ستنزل؟

رد عليها بثقة:

– في البيت، سأفتح الدار وأنتظر خروجكم،".

ان أغلب كتاب الرواية يتأنون في خوض تجارب روائية والصراع مازال محتدما لم يحسم بعد، إلّا ان من يكتب في خضم ذلك هو الذي يمتلك التزاما اخلاقيا ومهنيا، لأن من مهام السرد هو التوثيق، احدى جوانب أو عتبات الابداع الروائي هو التوثيق الفني الأدبي الرصين. حين يكون لازما في عصر تحكمه الفوضى وتعبّر على أضلاعه

عجلات المآسي، ولا شئ أكثر قساوة على الانسان من الموت الذي أصبح زائرا ثقيلا في ظل كورونا. يموت الأب أو الأم ولا من يستلم جثمانه أو يصلي عليه ويدفن في مقبرة مجهولة، يموت أمام عين المحب ولاطاقة له على انقاذه.. حالات تقود المصاب الى عزلة تامة، خاصة ان الانسان في لحظات مرضه يتعطش الى رؤية من يحب، فكيف بالأحبة يغادرون مثقلين بالخيبة، وتجافي التقاليد والاعراف.

" ستبكي الحاجة أم أحمد بصوت يشبه إصطدام آنية النحاس، على رفيق حياتها الحاج ريحان، بدموع وأي شمس لا تكفي لتجفيفها، وهي تقول:

– إنه غضب من الله على الناس لأنهم تركوا الآخرة واهتموا بالدنيا فأصاب المؤمن وغير المؤمن، وكانت تقصد بالرجل المؤمن زوجها الحاج بعد أن أخطأت التعبير، وقد كانت أن نذرت لوجه الله خروفا أذا شفي زوجها وابنها، ومات زوجها، وشفي ابنها، وظلت حائرة، وتساءلت: هل توفي بنذرها أم لا؟

وسيبكي أحمد ابن الحاج ريحان وتحرق الدموع خديه الممصوصين بسبب إصابته بالوباء، وهو يقول:

– لا تفيد مع هذا الوباء كل الأدعية، والنذور، والحروزة، وتفال السيد.

وستبكي زوجة أحمد، كريمة العين، عمها الحاج ريحان بدموع حارة وهي تنزل من عينها السليمة، وفي الوقت نفسه تقول لنفسها وهي في مطبخ الدار تعد طعام الغداء لعائلتها:

– الحمد لله إن زوجي قد شفي، ورحم الله عمي.

سأل أنمار أخته نوال بالمحمول، والسيارة متجهة إلى بغداد:

– كلكم بخير؟

قالت نوال مخاطبة أنمار بالمحمول، وهي تنشّف جسمها من البلل بعد أن خرجت من الحمام:

– كلنا بخير.

كلهم سيبكون، وكلهم سيتحدثون عن مآثره، وكلهم سيثوّبون له أنواع المأكولات، وأنواع الحلويات، وأنواع العصائر، والشرابت، إلّا أن جميعهم قد قرروا بلا اتفاق، انّهم سيغلقون فمهم عند الحديث عن السبب الذي أوصل الفيروس له، إحتراما للوالد. ".

داود الشويلي لم يحلق بمخيال الأديب بعيدا بإسلوبه السردي ليخلق الدهشة أو الفنطازيا أو الغرابة. انه يبحث عن هذا في معترك الحياة ووقائعها. حريص على مصداقية مايجري وما تملكه الأحداث من قوة الاقناع. على الرغم من عدم اكتفائه بسرد الأحداث الواقعية انما ساهم

في التعبير الفني كإبداع مواز مع التوثيق. وهذا ماحرص عليه في رواية (الكمامة البيضاء والقفاز الأزرق) من خلال مصداقية الأحداث ونبض الواقع دون التخلي عن رؤيته الفنية وأدواته السردية الابداعية. " تذكر قولها وهي ترغب في إغاضته، عندما اختلى بها في غرفته، ذات يوم وكانت الدار خالية من أهله:

"– كل الأطفال في العالم يرسمون، وأنت منهم.

– حقا!، قال وضحك من قولها. لم يكن يقهقه بل كان ضحكه عاليا، وبصدق، حتى خشي أن يفضحه ضحكه، قال لها:

– إلا أني غادرت مرحلة الطفولة، وإلّا ما كنت أحبك بهذا العشق، والهيام، أنا الآن استطيع أن أعيد صياغة العالم كما أريد.".

الكمامة (بيضاء) والقفاز(ازرق)..عند متابعتي لتوالي السرد لم أجد لهذين اللونين دلالة أو رمزا على الرغم من ان المؤلف قد ألبس بعض الشخوص وكذلك سائق الشفل كمامة بيضاء وقفازا ازرق مع العلم توجد الوان أخرى. ويستوجب تغيير الألوان لوجوب استبدالها في اليوم أكثر من مرة حسب الاستخدام. ان وجود رسم الفايروس على الغلاف مع اسم (الكمامة والقفاز) ، يغنيان العنوان.

ولكن من الممكن ان الروائي أشار الى اللون الابيض تعظيما للجيش الأبيض من رجال الصحة والمساندين لهم الذين جابهوا الموت بالمحبة والتضحية والعمل الشاق المستمر لأيام متوالية من أجل انقاذ مايمكن انقاذه من الأرواح البريئة التي يتداركها الموت بفعل التقصير الواضح في الأجهزة والأدوية والمتابعة ونشر الثقافة والوعي واحكام الخطة المنقذة للناس جميعا كما فعلت الكثير من الدول. كما أن اللون الأزرق ذلك الامتداد الالهي العظيم الذي يتجلى فيه الأمل، السموات التي نرفع اليها رؤوسنا كلما ضاقت علينا حلقاتها نتوسل الفرج ونتامل الرحمة.

وظّف الروائي داود سلمان الشويلي، معطياته السردية بلغة ثرية استطاعت أن تكون مرايا صافية وهي تصور واقعا تسجيليا توثيقيا بإسلوب حاذق بين الصورة والمتخيل، تتعالق مرجعياته اللغوية بين الخطاب والشعرية والايماءة والدلالة، وهو يسعى الى تكثيف الصورة السردية التسجيلية، بلغة متفاعلة مع طبيعة الحدث، وعمق الصورة، بلغة واضحة الملامح، لتنقلنا من الخطاب التصويري أو التوثيقي، الى الخطاب الفني الذي لم يتأثر بغرائبية الواقع في ألمه وهول أحداثه، لينتج مبناً سرديا متماسكا، ومتعدد في خطابات شخصياته في حدود ثراء النص ودلالاته، من خلال تجاوز الروائي تقريرية الوثائق بالجمل

الشعرية المكتنزة الدالة على حجم الفقدان وتوقعه، وماينتظر الآخرين اقتفاء أثره.

ان اللغة في رواية (الكمامة البيضاء والقفاز الأزرق) قريبة من سياقات الأحداث المتلاحقة التي لاتتحمل تأويلا أو تملك قدرة على التحليق خارج وظيفتها . لذلك فقد تمكن من جعل الرواية مترابطة في بنيتها الزمنية والمكانية، لم يرهقها التاريخ الموضوعي ويكبل حركتها.

د. حسن البصام

الناصرية – ٢٠٢٠/٦/٣٠

تحدث ابن كثير وقال: ((أنّه عندما اجتاح المغول بغداد ودمروها في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م: تعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد،... ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنّها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون)). (البداية والنهاية –ابن كثير– ج١٣– ص٢٠٣)

" لن يبقى في الذاكرة سوى ما نريد نسيانه"

– مقولة عامة–

فصل/١

كانّ تنفسه صعبا، وعسيرا، يشهق بصعوبة، ويزفر بإرتباك متقطع، وكأنّ جهاز التنفس الممدود أنبوبه البلاستيكي إلى الماسك الشفاف الذي أحاط بأنفه وفمه عاطلا ولم يعمل بإنتظام، وقد ارتفعت درجة حرارة جسمه عاليا، وظل الحاج يهذي، فيما كل شيء في الغرفة يوحي بالمرض، السرير، الفراش، الأغطية، وحتى لون جدران الكرفان، كلها بلون الثلج. وجهاز التنفس الاصطناعي المركون جنب السرير وهو يضخ الأوكسجين إلى أنف المريض دون توقف، كان لونه أبيضا كالثلج النازل من السماء. كل شيء في هذه الغرفة التي بابها من الخشب الأبيض، والإنارة بيضاء، أيضا، كالحليب الذي اخرج منه القيمر، والزبدة. لقد سيطر البياض على كل شيء في الغرفة. هذا الباب كان في قسمه العلوي زجاج شفاف لمن يريد أن ينظر إلى داخلها، يوحي بأنها غرفة الإنعاش في مستشفى المدينة المركزي الذي اقتطعوا جانبا من أرضه ووضعوا عليها مجموعة من "الكرفانات"، وجهزوها بالأسرة، والفرش، والأجهزة المطلوبة، لتكون مستشفى طوارئ لمرضى كورونا الذي كانت حالة الحاج ريحان أول حالة مرضية في المدينة تدخله بأمر

الطبيب المختص. كان رأس الحاج مائلا إلى جهة شباك الكرفان، كان ساكنا، وملامحه هادئة، مطمئنة، توحي بالسكينة، لم ترمش عيناه، وكانت وهو بين الشراشف البيض تلتمع تحت ضوء الكرفان الأبيض وهي تنظر من خلل شباكه الصغير إلى خارجه حيث تمر أمامه من بعيد أشباح كثيرة لم يتبيّنها الحاج جيدا، فيما لو رفع رأسه قليلا لرأى نجمة بعيدة في السماء تومض بسرعة مثل سرعة إنزال رأسه على الوسادة. كان الصمت سيد الموقف سوى صوت تنفسه المتكرر. وكان فمه من تحت كِمامة الأوكسجين يبتسم بهدوء وسكينة، فيما الاسم الذي يردده بصوت خافت بين الحين والآخر هو اسم حفيده أنمار. حتى أن الممرض الخافر تعجّب من ترديد الاسم، فحاول أن يسأل واحدا من عائلته، إلّا أنه لم يفلح باللقاء مع أحدهم.

كانت المدينة التي تعيش فيها عائلة الحاج ريحان، وهذا اسم أطلقه عليه جده لأبيه قبل أن يولد بشهرين، فهو كما قال جده "روح وريحان" مذكور في القرآن، وكذلك الرائحة الطيبة التي يحملها عود الخضرة الذي يؤكل والذي يحمل الاسم ذاته، تقع على التخوم الأمامية للصحراء الغربية الممتدة حتى الحدود العراقية السعودية، عادية ككل مدن الجنوب العراقي منذ السومريين إلى يومنا هذا، مناخها قاري، شتاء بارد وصيف

حار، ومغبرّة بالتراب في أغلب فصول السنة، حتى سماها بعض ظرفائها "مدينة الغبار" على وزن "مدينة الضباب". وبالرياح التي تهب عليها في ما يسمى فصل الخريف، وفي فصل الصيف، والمحملة بذرات التراب والرمل الصحراوي الناعم، خاصة في فصل الصيف الحار جدا والذي يصعب فيه أخذ شهيق نقي براحة تامة، والعيش براحة جسدية ونفسية إلا بتكييف هواء المكان الذي يرغب الشخص البقاء فيه، ورغم ذلك فهي مدينة جميلة في عيون أهلها، وهادئة بهدوء أحلام ناسها الطيبين. كان كل شيء يسير في المدينة بهدوء وسكينة. فما زالت العصافير تطير منخفضة لترى وجوه أهلها المبتسمة، على الرغم من وجود غلالة شفيفة من الحزن الدائم من عصر سومر إلى يومنا هذا. والشمس ما زالت تشرق على شوارع وسطوح دور أهلها في الصيف، وتقوم بتدفئتها في الشتاء، وما زال ناسها يحبون ويكرهون، ويموت أهلها في أوقات موتهم. وسوق المدينة ما زال مكتظا بالرواد من النساء والرجال. وصوت الآذان يرفع فجرا، وفي وقت الظهر، وحين تغيب شمس ذلك اليوم. وما زال محل أحمد بن الحاج ريحان التجاري فيه حركة المتبضعين على أشدّها صباحا ومساء، حيث يبيع كل أصناف المواد الغذائية الطازجة، والمعلبة، والجافة، والسائلة. وما زالت

"الستوتات"[1] تدور بين الأحياء السكنية وأصحابها يصيحون، ماءRO، و فاكهة، و مخضرات. أو من عنده عتيق للبيع. وما زالت موسيقى بائع الغاز ترسل صوتها الحزين وهي تنبّه نساء الدور عليه. إنها مدينة حية تعيش في كل العصور منذ أور حتى البطائح إلى الناصرية، فذي قار.

كان أكثر أبناء المدينة، شبابا وشيوخا، نساء ورجالا، يزورون ساحة الحبوبي، والثائرين الذين فيها، بخيمها الزرقاء التي تحيط بالحديقة المدورة والمسيجة حول تمثال المجاهد الشاعر محمد سعيد الحبوبي، وهو يقف على قاعدة كونكريتية مغطاة بالحجر، وقد انتصب التمثال فيها عام ١٩٧١، وقد أنجزه النحات ابن المدينة عبد الرضا كشيش. وبأعلام العراق التي ترفرف فوق الرؤوس بألوانها الزاهية. وتزدان بصور شهداء الثورة الذين سقطوا مضرّجين بدمائهم وهم يرددون "بالروح بالدم نفديك يا عراق" بصوت هادر يثير الساحة ومن فيها. وكانت الساحة الدائرية قد نبتت فيها شجيرات تحمل أغصانها العصافير المزقزقة دائما. ويحيط بها سياج حديدي كثيرا ما يحمل اللافتات، وقطع التعزية بذكرى وفاة أمام، أو شخص معروف في المدينة، وتدور حولها مواكب اللطم وضرب

١ - الستوتة: مركبة من ثلاث عجلات تحمل وتوصل كل شيء.

الزنجيل وضرب القامة[1]. وقد كثرت في أطراف المدينة المآتم، والمواكب الحسينية إبان شهر محرم، وما يتلوه من شهر حتى ينتهي أربعين يوما، ويختمها الأهالي من العامة بزيارة الأربعين.

كانت المدينة، وناسها الطيبين حد السذاجة، كما يصفهم الذين لا يعرفون صفاتهم جيدا، تتابع عملها المعتاد، في التسوق، والجلوس في المقاهي المنتشرة بين الأحياء والشوارع. والشباب ما زالوا يقيمون علاقات الحب، والعشق، والهيام، وقد ثارت، هذه المدينة، مع كل مدن العراق الجنوبية، ومع بغداد، ضد سياسة المحاصصة، والنهب، والسرقة التي كانت الأحزاب التي جاءت على الدبابة الأمريكية تقوم بكل هذه الأفعال، فباتت مدن الجنوب خرائب ينعق في أرجائها البوم، حتى ان "سالفة"[2] قديمة كانت العجائز تحكيها لأحفادها الصغار مفادها: إن ملكا كان يحكم ولاية كبيرة، ولم يهتم بعمرانها، ولا بأهلها، حتى أصبحت مجموعة من الخرائب. وذات يوم كان يجلس في ظل شجرة من أشجار حديقته الواسعة، فحط بومان على أحد أغصانها، وكان البوم الأول يقول للبوم الثاني إن مهر ابنتي عشرين خربة، فصاح البوم الثاني: هذا مهر غال،

١ - اللطم وضرب الزنجيل وضرب القامة: شعائر يمارسها بعض أبناء المذهب الشيعي .

٢ - سالفة: الحكاية التي تحكى عن السلف.

من أين يأتي ابني بهذا المهر؟ فأجابه البوم الأول: لا شيء غالٍ أمام ابنتي، ويمكن لأبنك أن يأتي بأكثر من عشرين خربة ما دام هذا الملك يحكم هذه الولاية.

كانت المدينة تعيش في فصل شتاء بارد، سماؤها مسقوفة بالغيوم السوداء التي تعد بأمطار غزيرة، إلّا أنها لم تمطر، فخيّبت آمال من كان ينتظرها بفارغ الصبر. وكانت الساعة الثامنة من مساء يوم كانت فيه رائحة شتاء كانون الثاني من عام ٢٠٢٠، باردة، إلّا أنها مريحة، عندما أُدخل الحاج ريحان، برأسه الذي تعود أن يقص شعره نمرة صفر منذ أن كان في عمر الخمسين، وبعقاله، ويشماغه، وبدشداشته البيضاء، إلى هذه الغرفة البيضاء في هذا "الكرفان" المنصوب حديثا، بعد أن شعر أن حنجرته باتت تؤلمه، وأخذت تحكه بين فترة وأخرى، كأن ترسبات من رصاص ثقيل في بلعومه، فكان يحك جلدة بلعومه من الخارج بالقرب من تفاحة آدم التي راحت تصعد وتنزل لتعالج هي الأخرى تلك الحكة الدائمية التي تدفعه إلى السعال، وقد لزمته نوبة سعال حادة وقوية جدا، راح يسعل كالمسلول بتواصل حتى إزرق لون وجهه، فيما كان بلعومه جافا، وازدادت درجة حرارة جسمه حتى شعر إن جبهته أصبحت كالبركان سخونة. كان عمره أكثر من ستين سنة ونيف، عندها انتبه ابنه

الكبير "أحمد" الذي وصل إلى العراق قبل ثلاثة أيام، بعد أن كان في سفرة تجارية إلى بلاد مجاورة، بأنه يجب عليه أن يعرض والده على طبيب الصدرية صديقه.

في الوقت الذي توقّف زفير الريح في ساحة الحبوبي ناشرا برودته الثلجية، كانت عيادة طبيب الصدرية هادئة، ساكنة، لا يسمع فيها أي نأمة ولا صوت. كان فحص الطبيب للحاج ريحان قد انتهى، فأخبر صديقه أحمد بإدخال والده إلى مستشفى المدينة. نزل هذا الخبر كالصاعقة على رأس الحاج، ورأس ابنه الذي يرافقه في عيادة الطبيب. إن عائلته تتزعج من الدخول إلى أي مستشفى، فكيف أن يرقد والدهم فيه؟

كان الطبيب صديق أحمد، يعرف الحاج وابنه، وكانت عائلته تسكن في دار بجوار دارهم، أكد على إدخال الحاج إلى المستشفى، وكتب ورقة صغيرة وقال لأحمد:

– سلم هذه الورقة إلى الطبيب الخافر في المستشفى وهو يقوم باللازم.

سأل أحمد صديقه الطبيب بنبرة حادة، قائلا:

– لماذا يا دكتور؟

أجاب الطبيب ووجهه متجه إلى الأوراق المرتبة عل المنضدة التي أمامه:

– سيخضعونه للفحص بواسطة أجهزة لا أملك مثلها في عيادتي الخاصة.

خرج الحاج ريحان من صمته وقال:

– أتشك بإصابتي بسرطان البلعوم؟

ضحك الطبيب وقال:

– سنرى ذلك من خلال تقرير المستشفى.

ولاذ الطبيب بالصمت، وراح يشغل يده بكتابة شيء ما على الأوراق التي أمامه، فيما خشي الحاج وابنه من هذا المرض، فراحت معدة الحاج تقرقر بصوت يسمعه هو.

ازدادت درجة حرارة جسم الحاج، وكذلك الحكة، فأخذ ينهش على جلدة بلعومه كالمصاب بالجرب، فزادت الكحة، وها هو يسعل بسرعة وقوة لم يعهدها ابنه سابقا. لم يرد الحاج أن يموت هكذا وبسرعة، على الرغم من أن الموت حق، وأن الأنبياء – كما ردد مع نفسه – قد ماتوا كلهم، والأئمة والأوصياء، هم كذلك. كان كل من في العائلة يحبه ويحترمه. ابنه الكبير أحمد لم ير منه أي ضغينة تذكر، أو جفاء، ولا

حتى ابنته المتزوجة من ابن عمتها في البصرة، فإنها تحترمه وتحبه أكثر مما يجب أن تحب ابنة أباها، ولا أحفاده، وحتى زوجة ابنه، ابنة أخيه، كريمة العين[١]، والتي تضع بؤبؤ عين زجاجي يشبه العين السليمة، تحبه وتحترمه كوالدها الذي استشهد في حرب العراق وإيران عندما كانت طفلة صغيرة، لهذا هو متمسك بالحياة ولا يريد أن يغادرها، فسنواته الثلاث والستون لا تقاس بالسنين والأيام بل أنه يقيسها بمدى حب واحترام عائلته له، فسعادته هي سعادة عائلته، ومن أجل عيون هؤلاء يحب الحياة، هكذا فكر وهو ينظر إلى وجه ابنه أحمد وهو يكلم الطبيب.

كان الطبيب الخافر الذي استقبلهم في المستشفى، يضع كِمامة بلون أبيض على أنفه وفمه، ويرتدي قفازات بلاستيكية بلون أزرق، كطبيب الصدرية الذي حوّل هذا المصاب إلى المستشفى. وكان هذا المنظر هو ما شد انتباه أحمد والحاج ريحان.

كان وباء الكورونا قد ظهر في الصين قبل فترة زمنية قليلة، ولم يكن أحمد وعائلته، وكذلك سكان مدينته التي تقع على تخوم الصحراء

١ - كريمة العين: هو تعبير عامي عن الشخص الأعور العين.

الغربية، ويشقها إلى نصفين نهر الفرات، وهي تشرب الماء من نهر دجلة، وسكان العراق كذلك، قد علموا بوباء الكورونا، إلا أن الأطباء قد تهيّؤا إلى مثل هذا الوباء، لذا، فالكثير منهم تحصنوا وراء الكِمامات والقفازات البيضاء والزرقاء، ولم يعرف أحمد العائد من ذلك البلد أنه حامل لفيروس هذا الوباء بعد أن أخفت حكومة ذلك البلد الأولى لهذا الوباء، إلّا أن صدمته بما قاله الطبيب الخافر الذي تحصن بالكِمامات والقفازات كزملائه الآخرين العاملين في المستشفى وقت أن جاء أحمد بأبيه إليه، كانت قوية جدا بحيث أنهدَّ حيله وفترت قوته. قال له الطبيب الخافر دون مقدمات، إن الحاج مصاب بالكورونا، ثم خرج من غرفته. وبعد لحظات عاد إليها بمعية أثنين من أفراد الشرطة، وأثنين من الممرضين، وهم يرتدون روب ازرق وفي أكفهم القفازات، وعلى أنوفهم وأفواههم الكِمامات، وقد ارتدوا النظارات الشفافة التي تمنع الفيروس من الدخول إلى العينين. لم يكن أحمد، ولا أي فرد من عائلته، يعرف بهذا المرض، إلا ما تبثه القنوات التلفزيونية من أخبار عن الصين، وكانوا لا يعيرونها انتباها.

كان كل شيء يسير كما مخطط له بالنسبة إلى البضائع التي جلبها أحمد من تلك الدولة، والربح وفير. وكان يخطط إلى سفرة ثانية بعد

اسبوع. كما كان ناس مدينته فرحين بهذه البضاعة، ونوعيتها، ورخص ثمنها. كان كل بيت في المدينة قد دخلته تلك البضاعة التي استوردها من تلك الدولة المجاورة.

لم تكن الإرشادات والتعليمات التي يقولها المختصون في القنوات التلفزيونية، من مقررات الاستماع لها من قبل أفراد عائلته، فقد كانت أخبار الثورة التشرينية هي كل ما يهمهم سماعه، ومتابعته، حيث ابنهم أنمار في بغداد يدرس الرسم في كلية الفنون الجميلة ببغداد، وهو مشارك فعال في هذه الثورة، وكان واحدا من الناشطين في هذا المجال.

مرة ظهر أنمار، بعينيه الزرقاوين كماء البحر والتي أخذ لونهما من جده لأبيه، على إحدى القنوات التلفزيونية وهو يقرأ بيان تنسيقية ساحة التحرير، الذي ذكرت فيه الشروط الواجب توفرها في رئيس الوزراء المرشّح، والذي وافقتهم عليه كل تنسيقيات المحافظات الجنوبية.

كانت عيون العائلة منصبة على ساحة التحرير، ولم تغب عنها لحظة واحدة. وكان أحمد يعرف أخبار الساحة عندما يعود إلى البيت من ابنته نوال، بعينيها اللوزيتين كعيني جدتها لأبيها، وشعر رأسها الأسود الذي ترفض أن تصبغه بأي لون، وخصرها النحيل الجالس على وركين كبيرين تنوء بثقلهما، وكذلك هي ناشطة في ساحة الحبوبي، والتي

ظهرت مرة على شاشة إحدى القنوات التلفزيونية، وهي تردد الشعارات، ومن خلفها طلبة الكليات يرددون ما تقوله.

كانت رؤية الناس وهي تصل إلى ساحة الحبوبي عبر شاشة التلفزيون، هو شاغل هذه العائلة. ففي ساحة التحرير في بغداد هناك أنمار ابنهم، وفي ساحة الحبوبي هناك نوال، ابنتهم، ولا شيء غير ذلك يلهي هذه العائلة سوى بضاعة الأب أحمد التي استوردها من البلد المجاور. وكان هو في المحل لا يشغل باله سوى بضاعته، وفي البيت لا يشغل باله سوى أخبار ساحات الثورة التي يسمع أخبارها من ابنته نوال بعد أن يتناول طعام العشاء. أما والد أحمد، الحاج ريحان، بجسمه القريب إلى الضخامة، فلا شيء يشغل باله سوى أخبار حفيديه أنمار، ونوال، وأخبار ساحات الثورة، وماذا قال أنمار، وماذا قالت نوال. فيما كانت الحاجة أم أحمد جالسة أمام شاشة التلفزيون وهو يعرض صور من ساحات الثورة وتنتظر فيها أنمار أن يظهر مرة أخرى على شاشة التلفزيون، وبين فترة وأخرى تنادي على حفيدها الثالث توأم أنمار، أن يغيّر القناة لعلها ترى حفيدها أنمار. وكانت أم أنمار ونوال، وزوجة أحمد، تقضي وقتها بين المطبخ وشاشة التلفزيون لعلها تحظى بمشاهدة ابنها أنمار.

إن المدينة، ككل المدن في العالم، لا يثبت فيها الظل إلا قليلا، وفيها الحب بين عاشق وآخر كالحب بين شباب العالم، وهم يزعلون كذلك، وينأى أحدهم عن الآخر، وتخرج أغلب نساءها غير الموظفات إلى التسوق صباح كل يوم، فيما يعمل أغلب أبناءها في شتى المهن لا يأخذون على ذلك راتب من الدولة، والبقية يعملون عند الدولة كموظفين براتب شهري. وربَّ قائل يقول إن في هذه المدينة أسطورة سومرية قديمة وهي أسطورة دموزي. تذكر أن دموزي ينتقل إلى العالم الآخر، عالم الأموات، ستة أشهر ومن ثم يخرج ليبقى في العالم المنظور ستة أشهر أخرى، وهكذا دواليك. إنها أسطورة الخصب السومرية، حيث بخروج دموزي إلى عالم الشهادة ينمو كل شيء ويخضر، فيما يذهب الخصب عندما يدخل دموزي إلى العالم السفلي، عالم الأموات، وهكذا هذه المدينة، تحيا في الربيع والصيف، وتموت، بل تستكين، وتهدأ، وتكمن، في فصلي الخريف والشتاء، على الرغم من أن فصلي الربيع والخريف غير موجودين في قاموسها. وناسها مثل أسطورة دموزي، تموت لتنهض من جديد، عنقاء الفرات، ولم يصبها شيء من الوباء القادم من خلف الحدود، وإذا أصابها فإنها ستتماثل للشفاء وتنهض من جديد.

ذهب الحاج مع الطبيب الخافر إلى مكان لا يعرفه هو أو ابنه. وكانت رائحة المعقمات، والمطهرات، تنبعث من أرجاء المستشفى، وهي تدعوه، هو وابنه، إلى التجشؤ وإفراغ معدتيهما. ولأول مرة في حياته شعر بالغربة والتوحد، فقد كان مسلوب الإرادة وهو يتبع الطبيب أينما ذهب. كان مثل الخروف يجري وراء قصابه، فيما قال أحد أفراد الشرطة، المتحصّن بالكِمامات والقفازات، ونظرة حادة ترتسم على عينيه التي تنظر إلى وجه أحمد:

– هيا بنا، عائلتك محجور عليها حتى التأكد من عدم إصابتها بالوباء.

عندها أُسقط في يديه. كان لا حول ولا قوة له. فكانت هذه القضية هي التي حركت الماء الساكن في بركة حياته، وهزت الهدوء الذي كانت تعيش فيه عائلته، هزتهم من الأعماق فتركتهم مكشوفين أمام الناس. لقد أخذتهم هذه الكورونا من دون مقدمات، وباتت وصمة الإصابة بمرض الكورونا هو شاغل الناس في الشارع الذي يقع عليه بيتهم. لقد أغلق دارهم بالقفل والمفتاح، بعد أن جاءته مفرزة من الدفاع المدني وقامت بتعقيمه وتعفيره. حتى صور والده وهو في بيت الله، أو صورته وهو قريب من أضرحة الأئمة، تم تعفيرها وتعقيمها. كان هذا الوباء مثل وباء

"أبو زوعه"[1] الذي أجتاح العراق عدة مرات، وقد ورد إليه من الدولة المجاورة ذاتها. أُقفل باب الدار بعد أن تم تعفيره وتعقيمه وسلم مفتاحه إلى نوال وهي على السرير الأبيض، والذي أرسلت به، بعد تعقيمه وتعفيره، إلى أنمار عندما عاد من بغداد.

***

١ - أبو زوعة: هو الاسم الشعبي في العراق لمرض الكوليرا، أو في اللغة العربية يسمى "الهيضة" الذي انتشر في العراق عام ١٩١٧، وعام ١٩٢٥، وعام ١٩٦٥.

الفصل /٢

عدما تنزل الخيرات دفعة واحدة على شخص ما فإنها لم تترك له مجالا لأن "يحكّ رأسه"[١] هكذا تقول الناس من سالف العصر، والزمان، وتتندر في هذا القول. واليوم كل شيء نازل من السماء فيه خير وبركه للناس أجمعين، أو هكذا تعودنا أن نرى في ما يجلبه المطر من خير لأننا بلد زراعي منذ حضارة سومر، ولا يمكن لنا أن نصدق بقول القائلين أن زراعة الخضروات هي من اختصاص الناس الذين يدعون بالحساوية وجاءت معهم حين وفدوا إلى العراق من الأحساء في الجزيرة، بل علينا أن نبحث عن معنى كلمة حساوي، وحتما سنجدها تعني مزارعي الخضروات، وهكذا كان بلدنا. فقد أضحت السماء ملبدة بغيوم سوداء، وجوّها بائسا، وهي تتدلى فوق رؤوس الكائنات من تحتها، وكأنها متلفعة بثياب الحداد، تعد بمطر غزير، فيما هبّت قبل قليل، ريح ليست قوية، كأنها أرواح شهداء الثورة عادت إلى ساحة الحبوبي فكنست الشوارع

١ - يحك رأسه: تعبير عامي عن كثرة مشاغل الشخص.

والأزقة وكل فجوة قائمة بين الدور من كل ما هو غير ضروري في أن يكون، فنقلته إلى مكان آخر، ثم فجأة عصفت بصوت عال، صرخت بقوة، أنّت أنين المتألم، الوجعان، وحركت أغصان كل شجرة كانت في طريقها، فراح حفيف الأوراق يتعالى، وهزيم الرعد يدوّي صوته وكأن براميل تتصادم فيما بينها، والبرق يومض وينطفئ بسرعة عجيبة كسرعة إغماضه العين وانتباهتها، فنزل المطر سريعا، قويا، مدرارا، وكأن السماء فتحت مزاريبها على وسعها كشلالات لا تقف عن الجريان الهادر، واصطدمت براميلها الكبيرة فيما بينها، فأرسلت شررا وامضا يعمي الأبصار[1] والقلوب. كانت السماء ترسل مطرها مدرارا كسيلٍ جارفٍ من علٍ وتنزله من سطح دار الحاج ريحان مزاريب أنبوبية مصنوعة من لدائن بيضاء اللون لترسله إلى حديقة المنزل الصغيرة فيجتمع مع ماء المطر النازل مباشرة على الحديقة. فاضت الحديقة به فتسرب إلى خارج الدار، حيث تلقّفه زقاق ليس بالعريض، فجرف في طريقه كل شيء يستطيع جرفه ولا يمسكه شيئا وصبّه في الشارع، فيما فزّ الحاج ريحان من مشاهدة لقطات مضحكة بين توم وجيري في حلم كثير ما راوده في

١ - هناك خرافة يتداولها العامة عن حدوث المطر والرعد والبرق تقول: ان في السماء براميلا مملوءة بالماء، وعندما تنفتح أغطيتها ينزل المطر، وبتصادمها يحدث شرارا فيكون البرق، كما يحدث صوت هو هزيم الرعد...

منامه قرب زوجته الحاجة على السرير الخشبي القديم. لا يعرف إن كان هذا الحلم بالأسود والأبيض، أم انه حلم بالألوان؟ ولكنه كان يعرف جيدا ان جيري يرفع يديه ويضعهم قرب أذنيه ويحركهما بإستهزاء من توم وهو يضحك ويجري ومن ورائه يجري توم، ثم بعد لحظات يرى أن توم هو الذي يجري ومن ورائه جيري يتبعه لكي يلتهمه، كان المشهد مسليا ومضحكا. لقد فزّ وهذا المشهد يراه منذ أكثر من شهر، ولم يعرف إن كان قد فزّ بسبب صياح الديك الذي يأتيه من بعيد، أو كان بسبب التهام جيري لتوم، أو بسبب مثانته الملآى بالبول والتي تحتاج إلى تفريغ؟

فمنذ أكثر من شهر يتراءى له في منامه هذا الحلم، حتى بات مثل الصلاة التي تقام في كل يوم. تساءل الحاج ريحان وهو في زحمة الحلم وقصته، مع نفسه: إنه حلم جميل، ويا ليت كل ليلة يراه في منامه، وأخبر زوجته به، فشاعت ابتسامه على وجهها وقالت له:

– إنه يعدّ بالخير.

رد عليها قائلا وهو ينزل من على" الچربایة"[1] الخشبية التي ورثها من والديه:

١ - الچربایة: چار: اربعة، بایة: رجل، بالفارسية، وهي السرير ذو الأربعة أرجل.

– وهل هناك خير يرتجى من هذه الحكومة؟

وأقفل تفكيره على العبارة التي قالتها زوجته بين مصدق ومكذب، وعلى حلمه اليومي الذي لم يفارقه منذ شهر، حيث يهجم عليه بلا استئذان قبل أن ينهض من فراشه عند "طگـة البريج"[1].

سألته زوجته قائلة:

– ما علاقة الحكومة بتوم وجيري؟

ضحك وخرج إلى المرحاض مسرعا ليفرغ مثانته الممتلئة بالبول، ورائحة الأمونيا الكريهة المنبعثة معه تصك منخريه.

عندما قالت الحاجة أم أحمد: إن الحلم يؤكد على أن نتائجه جيدة وفيها الخير، انطلقت، لا شعوريا، من خرافة اعتادها الناس، وتكررت عدة مرات، وعملوا بها، في أن كل ما يظهر في الحلم ينفذ بعكسه في الواقع، ولما كان الصغير يأكل الكبير، فهذا يعني أنه في الواقع سيأكل الكبير الصغير، وسيأكل الحاج ما هو أصغر منه، أي أنه يسيطر على الخير، ويحصل عليه.

١ - طگّة البريج: هو تعبير عامي يراد منه النهوض من النوم باكرا للوضوء بماء الابريق، أو الذهاب إلى الخلاء للتغوط ومعه ابريق الماء.

وإذا كان الناس يتندرون بالقول عن كبار السن بأنهم يولدون وهم على أربع، ويبولون على أنفسهم، ويموتون وهم كذلك على أربع، ويبولون على أنفسهم، إلّا أن الحاج ريحان كان رجلا صلبا، خدم الدولة عسكريا، وتدرج فيها من جندي مطوع في القوة الجوية إلى أن أصبح نائب ضابط درجة ممتازة[1]، لم يعاقب، وقد أحيل على التقاعد، وهو صلب العود، نشط الذهن، كثير التجاعيد، إلّا أن سرعة مثانته بالامتلاء، وسرعة حاجتها لإفراغ نفسها دون رادع من كل شيء، كان ما يزعج الحاج، وكان أشد ما يريحه في الحياة هو انسجام عائلته وراحتها. لقد تكرر ذلك الحلم أكثر من مرة منذ شهر، ولا يعرف ماذا يرمي إليه، هل يرمي إلى الخير، كما تقول زوجته الحاجة؟ وكيف يأتي الخير وفأر صغير يلتهم قطا كبيرا؟ هل يرمي إلى مستقبل أسود لا خير فيه؟ وهل أنا الإنسان الذي يقرأ مستقبله من خلال حيوان كبير يأكله حيوان صغير؟ هذه الأسئلة طرحها الحاج على نفسه، والسماء ما زالت تمطر بحارا من الماء، وما زال يفكر بهذا الحلم، وقلبه يقول له ما قالته زوجته بأنه حلم خير.

١ - نائب ضابط درجة ممتازة: أعلى رتبة عسكرية للمراتب، وهي أقل من رتبة ضابط.

كان كمثل حلم الملك فرعون، سبع بقرات عجاف تأكل سبع بقرات سمان، فكر قائلا: إنه حلم الفيلم الكارتوني نفسه، القط والفأر، توم وجيري، استمرت زوجته عندما عاد من المرحاض تسأله:

– كيف تلتهم الفأرة الصغيرة القط الكبير؟ ها؟

قال لها وهو يبتسم:

– انه في الحلم يا عزيزتي، ألم تأكل البقرات العجاف البقرات السمان في قصة سيدنا يوسف، في حلم الفرعون؟ ألم تأكل الأحزاب الحكومية خيرات الشعب الوفيرة؟

ردت عليه قائلا:

– اسكت يا حاج، للحيطان آذان.

قال لها وهو يضع الخاولي[1] على متنه كما يفعل العسكري عندما يركب القطار:

– عندما تكون للحائط آذان سأهدم الحائط هذا، وأقطع آذانه، وأتخلص منها، وضحك.

١ - الخاولي: المنشفة.

كان الحلم يتكرر في كل ليلة، الفأر يأكل القط، ولا مرة استطاع القط من أكل الفأر. كان الفأر يطارد القط، وهو بهذا الحجم الكبير يقوم بإلتهامه. ترك الحلم كما هو وأخذ بنصيحة زوجته أم أحمد بأن يكون أكثر صبرا، ولا يطلب من الحلم الجواب عن ماذا يكشف، ولم يكن في ذهنه كل يوم سوى مطاردة جيري لتوم دون أن يمسكه، إلا انه وقبل ان يستيقظ كان جيري هو الذي يأكل توم، ولأنه يعاد تكرار الحلم كل يوم، ترك انشغال ذهنه به. كان ما يشغل تفكيره هو قول زوجته، انه حلم خير، فكان يتساءل مع نفسه: ما هو الخير الذي يتحقق من وراء هذا الحلم؟

كانت زوجته تؤمن بالأحلام، كما هو، وكانت تؤمن بتفسيرها، كما هو، وتقول ان الحلم يرسم لنا طريقنا في الحياة، كما هو يؤمن بذلك، فتساءل: ماذا يرسم لنا هذا الحلم من طريق؟ وهو فيلم كارتون غايته زراعة البسمة على شفاه الصغار والكبار، هل يرسم طريقنا في المستقبل؟

سأل الحاج ريحان زوجته:

– هل اتصلتم بأنمار يوم أمس؟

ردت قائلة وهي تترك "الجربابة" لتنزل على سجادة صغيرة شبه بالية ورثتها عن والدي زوجها، وكانت موضوعة تحت أقدام النازلين منها:

– اتصلت به نوال.

قال لها:

– هل هو بخير؟

ردت عليه وهي تتحرك نحو باب الغرفة:

– نعم هو بخير، ويسلم على الجميع.

كان الممرض ينظر إلى وجهه وهو بين أشياء بلون الثلج، الشرشف الأبيض ذو الانحناءات الكثيرة من كل جانب، وجهه الهادئ، يداه الممدودتان، أطراف أصابعها المُسكة بقراصات مربوطة بسلك رفيع إلى جهاز مراقبة القلب، والجهاز الصغير لقراءة نسبة الأوكسجين في الدم، ورأسه المنهدّ على الوسادة البيضاء، وتفكيره، كل هذا مشغول بما يتذكره وهو على سرير الوباء الأبيض، وكمامة تزويده بالأوكسجين ما زالت على أنفه وفمه، ملتصقة بقوة على وجهه الذي أصبح مثل الليمونة أصفرا ويابسا، لكي تبقى الرئتين سليمتين، فيما أسلاك أجهزة قياس عمل القلب ممتدة من مكانها على جسده إلى الجهاز الذي تومض فيه أرقاما بألوان خضر، وحمر، وصفر، وهي تقيس فعالية قلب رجل جاوز الستين

من عمره. كان كل شيء قد تأكد له أنه مصاب بوباء كورونا ولا يعرف من أين انتقل له هذا الوباء القاتل. تساءل مع نفسه وهو يتنفس بسرعة وصعوبة: هل انتقل له من ابنه أحمد؟ حرك رأسه كأنه ينفي هذا الكلام، فإنتزعت الكِمامة التي يتنفس من خلالها من على فمه وأنفه، فسارع الممرض الذي يراقبه وأعاد الكِمامة إلى مكانها، فعاد تنفسه الصعب مرة أخرى إلى ما كان عليه، صعود وهبوط صدره بسرعة عالية، وصعوبة كبيرة.

في ليلة، لا ككل الليالي التي مرت على عائلة الحاج ريحان، كان الحاج يتنفس بواسطة الأجهزة التي تمدّه بالأوكسجين، وارتفعت حرارة جسمه، ربما ما زال هناك قوة مناعة متبقية في جسمه الذي يشع حرارة إلّا أنها غير قادرة على التغلب على فيروس كوفيد/١٩. وكان أفراد عائلته قد توزعوا على أسرة المستشفى الذي أنشيء على عجل من عدد من الكرفانات المرتبة الواحد جنب الآخر كأنها قطار واقف في محطته. وكان أحمد أول من خضع للفحص الطبي، مع أبيه، فنقلوه إلى مكان آخر غير الكرفان الذي احتلته عائلته بعد أن جاؤوا بهم كملامسين لحامل الفيروس. وكانت زوجة الحاج، أم أحمد، دائمة التفكّر بمصير زوجها الحاج، وابنها الوحيد، فقد ذهبا ولم تعلم إلى أي مكان أخذوهما،

كان أشد ما يؤلمها هو عندما تفقدهم نهائيا، إلّا أنها كانت تتصبّر بقول ابنها أحمد بالهاتف النقال الذي تتذكره "أن يصبروا قليلا، وان الحاج لا خوف عليه، وهم سيخضعون إلى الفحص ليس إلا". قالت مع نفسها وكأنها تحدث زوجها الحاج بعد أن ارتعشت عظامها أكثر من مرة: "إنه راضع من حليب أسود"، وكانت تقصد المرض الذي جعل زوجها يذهب بعيدا عنها دون أن يخبرها إلى أين، وابنها كذلك، وهي كثيرا ما تطلق هذه العبارة على الإنسان غير السوي والشرير، فيما تطلق عبارة "راضع من حليب أبيض" على الإنسان السوي والخيّر.

وكانت نوال هي الفتاة الوحيدة التي تعلم ما حدث لجدها ولعائلتها، والضغوط التي وقعت عليها كانت كبيرة جدا فكرت في أن تسقطها على فراش المرض، أي مرض. كانت مثل شهرزاد الليالي تعلم المخبوء والسري من الأمور والأحداث. فقد كانت تعلم إن والدها هو المسبب في انتقال هذا المرض، كما حدست مع نفسها، إلّا إنها لم ترغب في نقل ما كانت تفكر فيه إلى أفراد عائلتها خوفا على صحة أبيها ومكانته في العائلة، وكان ابسط شيء عملته هو إنها اتصلت بأخيها أنمار في بغداد وأخبرته بما حدث لهم، وهي في سيارة المفرزة الطبية "سيارة الإسعاف" في طريقهم إلى المستشفى حيث ينتظرهم الحجر.

عندما خرج الطبيب من كرفان العائلة، الجدة، والأم، ونوال، والإبن الثالث، سلام، الذي يحمل لون عيني والدته السوداويين، ونوال الناشطة المدنية وطالبة الكلية، كانت أوراق حجرهم الصحي بين يديه، قد اكتملت، وفي خارج الكرفانات التقى الأطباء الثلاثة الشباب والمشرفين على العائلة المصابة بالوباء، أو المشكوك فيها، توقفوا في مكان تحت ظل أحد جدران الكرفانات، وظلوا لفترة طويلة صامتين ينظر أحدهم بوجه الآخر، وكسر الصمت ذاك الطبيب الأول المسؤول على مراقبة الجد كبير السن، حيث يتدلى صليب ذهبي في عنقه يخرج بين الفينة والأخرى من زيق صدريته الزرقاء وكأنه يريد أن يشهد على ما يحدث أمامه، فيرغمه بالرجوع إلى مكانه ليختفي ثانية قرب صدره كحاجة زائدة، فسأل زميله الطبيب الثاني:

– ماذا تم من أمر العائلة؟

قال الطبيب الثاني المسؤول عن مراقبة أفراد العائلة باسما:

– إنهم في الحجر، وقد أخذنا عينات منهم وهي في طريقها إلى بغداد للفحص في المختبر المركزي، ولكن عليك أن تترك هذا الصليب بحريته أينما يريد أن يكون، وأشار إلى صدر الطبيب الأول، وابتسم.

رد الطبيب الأول عليه قائلا:

– لا فائدة منه الآن.

كان هذا الطبيب، وهو مسيحي، وهو طبيب مقيم أقدم، من أبناء المدينة، هو وخطيبته الطبيبة التي تشاركهم العمل، كان يكره الحكومة التي في ظلها سافر والده الطبيب مع زوجته الطبيبة، وأولاده الآخرين، إلى خارج العراق بعد أن وصلتهم ورقة تهديد قبل سنوات من أشخاص مجهولين ومعها طلقة مسدس، فغادرا المدينة والعراق، وسيغادر ابنه العراق عندما تنتهي إقامته وإقامة خطيبته حيث سيتزوجان في الغربة، وكان يسب الأمريكان ويضيف لهم عبارة "والذين في قلبه أسمائهم"، بعدها وجه كلامه للطبيبة الثالثة قائلا:

– وماذا فعلتم لأحمد بعد أن أخبرنا بقصة وجوده في الدولة المجاورة؟

نظرت الطبيبة الشابة بعينيها الصافيتين المضيئتين إليه وقالت بثقة:

– قد وضع له جهاز التنفس بالأوكسجين، وجهاز قياس بارومترات القلب، وجهاز "أوكسميتر" لقياس كمية الاوكسجين في الدم، وقد أرسلنا إلى بغداد عينات من دمه، ومسحات من بلعومه، وبعض المعلومات.

قال الطبيب الأول:

– لقد أخبرني ابنهم سلام أنه لامس ابنة الجيران، واسمها نجلاء، عندما كانا فوق سطحي دورهما، لقد كان يحبها، وأخبرني أنه قد قبّلها من

فمها، إنها لغة العشاق وهم يسرقونها من الوقت، أليس كذلك أيتها الطبيبة؟ علينا أن نحجر على عائلتها كلهم.

كان الطبيب الأول والطبيبة الشابة مخطوبين لبعضهما، وكان كثيرا ما يمازحها بمسألة تتعلق بالحب، والهيام، والعشق.

ضحكت الطبيبة التي تعلّق صليبا على صدرها هي الأخرى، وقالت:

– سأتدبر الأمر مع المفرزة الصحية ولن أذكر ذلك لهم.

قال الطبيب الثاني:

– علينا أن لا نذكر حب الشاب والشابة، وأن نخبرهم بأنهم ملامسون لعائلة الحاج، وعلينا أن نعرف مدى انتقال الفيروس لهم من خلال الحجر عليهم، وإخضاعهم للفحوصات.

شكر الطبيب الأول الطبيبين الآخرين، وخرج من الكرفان. فيما كان الطبيب الثاني ينظم أوراق حجر العائلة الثانية.

في فجر اليوم التالي، حيث كانت الشمس بعدها تختبئ في مكانها، ليس في عين حمأة، وإنما لم يصل دوران الكرة الأرضية إلى موقع تشرق فيه الشمس على أرضهم، فقد كان ذلك خداع للبصر. كانت المفرزة الطبية، وأفراد الشرطة بكامل زيهم الأبيض والأزرق، وبسيارات الإسعاف، وبلا صوت، وإنما كان الصمت هو المخيم عليهم، اصطحبوا

العائلة الثانية، عائلة نجلاء، بحجة إنهم لامسوا عائلة الحاج، وقد أجروا تعفيرا وتعقيما لدارهم ولسطحها الذي شهد أحرّ الغراميات بين الصبي والصبية، وشهد القبلات التي كثيرا ما كان يتبادلانها على الشفاه، حيث ما زالت أنفاس، وتأوهات، حبهم وعشقهم ترددها جنبات هذا السطح المفروش بالكاشي الأصفر الفاقع. أُقفل باب الدار وسلم مفتاحه إلى رب العائلة وهو على السرير الأبيض.

كان الحي الذي يقع فيه داريْ أهل الصبي سلام، وأهل الصبية نجلاء، والتي دوره مبنية بالطابوق، ونوافذه مصنوعة من الخشب، ومغطاة "بسيم" [١] رفيع، وقد شحب الطلاء فيها، قديم قِدم أحياء المدينة، في زقاق قريب من ثلاجة طوبيا الصامتة، والتي لا حراك بها[٢]. وضم كذلك أقدم دار سينما في المدينة والتي تحولت الى مخزن، وكانت هذه السينما تضع لوحة الفيلم الكبيرة على مسند خشبي ويوضع المسند في عربة "ربل"[٣] ويصحبها "كوزان"[٤] وهو يتحدث بأعلى صوته عن الفيلم.

١ - سيم: مشبك معدني لمنع الذباب والحشرات الدخول من خلال الشباك.

٢ - ثلاجة طوبيا، هي بناية على شاطيء نهر الفرات تضم معملا لانتاج الثلج، ومطحنة لطحن حبوب الحنطة، وتملكها عائلة طوبيا المسيحي، وفيها عمل يوسف سلمان "فهد" مؤسس الحزب الشيوعي.

٣ - ربل: وهو عربة نقل الركاب يجرها حصان. حنطور بالمصري.

٤ - كوزان – شخصية معروفة في الناصرية يعمل في دار سينما الاندلس.

وأقدم محل بقالية فيها، وأقدم حلاق، ونجار، إلا أن الدارَين، والدور المجاورة، التي تقع داخل زقاق لم يكد يبلغ عرضه المتر والنصف، قد تم ترميمها أكثر من مرة، وطليت بأكثر من لون، وجددت أبوابهما، وشبابيكهما، وبنيت فيها غرف كثيرة، حتى شمل ذلك البناء الطوابق الثانية، وأصبح للدار سطح ثانٍ، بعد أن كبرت العوائل، وأغلقت فيها محلات وبني بدلا منها غرفا لأبنائهم الراغبين بالزواج، كما حدث لدار أهل سلام، والذي إلى الآن تعرف بدار الحاج صكبان أبو الطرشي والد الحاج ريحان الذي عميت عيناه قبل وفاته بسنتين، فترك صناعة الطرشي وبيعه، وأغلق دكانه الذي أصبح غرفة استقبال للعائلة، ما زالت حموضة الطرشي منتشرة فيها. وقد ولد فيه أكثر من جيل، وتزوج بعض أبناء المحلة الواحد من الآخر، شبابا وشابات.

كان الصبي سلام قد وقع في غرام ابنة الجيران، نجلاء، فهام بها حبا، كانا طالبان في المرحلة الدراسية نفسها، وفي بناية المدرسة ذاتها، إلّا إنهما يختلفان في وقت الدوام، فإذا كان دوام الصبي صباحا، كان دوام الصبية نجلاء بعد الظهر، وكان العكس صحيحا، وكان دائما يراها عند خروجها من المدرسة، أو خروجه هو منها. حَلَتْ في عينيه كثيرا. كان جسمها ليس ضئيلا ولا كان ضخما، كانت كالعصفورة تتنقل ماشية

على سطح دارها وهي تقرأ. رآها وكأنه يراها لأول مرة، فتاة مفعمة بالحياة والآمال العريضة، والسعادة التي كان يحلم بها أن تكون مع الفتاة التي يحبها، ذات خدين موردين، وشفتين مكتنزتين بالشبق الذي "فرّ"[١] عقله نحوها، وعينين ناعستين، تحتهما غمازتين موردتين، وشعر أسود نازل إلى تحت ردفيها التي تنوء تحت ثقلهما.

مرة كان الصبي سلام يحضّر دروسه على سطح دارهم، بقامته الفارعة، وببريق عينيه اللتين تلتهمان السطور التهاما، وهو يرتدي "گلبية"[٢] صيفية، سمائية اللون، ونعالا اسفنجيا. فيما كانت الصبية نجلاء، الفارعة الطول مثله، ترتدي ثوبا ملونا وزاهيا، وشحاطة[٣] نسائية سوداء، تتحرك بخفة الغزال، وهي تقرأ لتحضّر دروسها على سطح دار عائلتها، وعبر "تيغة"[٤] سطح داريهما لاحت له كصبية الحكايات التي قرأ عنها في الكتب، ولاحت لها نظرة تجاهه فرأت فيه الفارس الذي تحلم بخطفها على حصان أبيض. ولم تكن رؤيتهما الأولى بل تعودا ذلك طيلة عمرهما، إلا أنه في ذلك اليوم رآها أجمل الجميلات، ورأته فارس

١ - فرّ: أدارَ، غيّرَ.

٢ - گلبية: نوع من ملابس الرجال، مثل الدشداشة، أو الثوب.

٣ - شحاطة: نوع من أنواع الاخفاف النسائية.

٤ - تيغة: ستارة السطح، سياج السطح.

أحلامها، سلم عليها باسما، فردت هي عليه السلام بخجل بان على وجهها، سألها ماذا تقرأ؟ ردت عليه بخجل أيضا: أقر جغرافية. قال لها: وأنا كذلك، وتكرّر الصعود إلى السطح بأرضيته المفروشة بالكاشي الأصفر الفاقع المغسول بماء المطر، في كل يوم بحجة تحضير الدروس اليومية حتى أوقعهم كيوبيد في شباك الحب، فشبك سلام حبال قلبه بحبال قلب نجلاء الصغير. وكان ديك عائلة سلام دائما يركض خلف دجاجتهم فوق سطح الدار دون أن يمسك بها لأنها تدخل في قنّها، أما باقي الدجاجات فهي تنظر إلى مطاردتهما التي يفشل فيها الديك من إخضاع دجاجة واحدة تحت سيطرته.

راح سلام يصعد إلى سطح دارهم بشتى الأعذار والمبررات حتى في العطلة الصيفية بعد أن يعود من محل والده.

لم يفد قول والد نجلاء للمفرزة الطبية التي وضعتهم في سيارة الإسعاف وجاءت بهم إلى المستشفى، قال لهم:

– إن عائلتهم وعائلة الحاج بينهم سوء تفاهم منذ أكثر من ستة أشهر.

إلّا أن أحد الممرضين قاطعه قائلا:

– ربما هم أطفالك وأطفالهم قد تلامسوا أثناء اللعب فيما بينهم في الشارع.

فردّ والدها:

– لم يكن لديهم أطفال.

ولكي ينهي الممرض الآخر هذا الحديث غير المبرر، قال ليسكت الأب:

– سنخضعكم للفحص ونرى ذلك.

كان أبو نجلاء موظف في دائرة الزراعة، يؤمن بأن الله خلق الخلق وتخلى عنهم، إذ تقوم الكائنات بإدارة نفسها بنفسها، من خلال قوانينها الذاتية، وهذه الأفكار سمعها عندما كان طالبا في المعد التقني وآمن بها، فهو لا يصلي، ولا يصوم، ولا يقيم أي فرض ديني، سوى أنه يؤمن بوجود الله الخالق.

كانت نجلاء قد التمّت على نفسها الكدرة مشوشة الفكر بعد أن سمعت من المفرزة الطبية أنهم يخشون من تلامسهم وعائلة الحاج، وقد انتابتها رعدة قوية هزت جسدها كله، وتساءلت في أعماقها إن كان هذا الذي يجري حقيقة أم ادعاء؟ وانتابتها رغبة في أن تصرخ في وجه المفرزة الطبية وتقول كل شيء، إلّا أنها ردت قائلة لنفسها التائهة وبصوت خفيض خشيت من أن يسمعه أحد أفراد عائلتها، أو المفرزة الطبية، وهي ما زالت في سيارة الإسعاف التي تنهب الطريق نحو

المستشفى تتنصت لكلام والدها مع الممرضين: إن من لامس عائلة الحاج في ذلك الأسبوع هو أنا، لقد كنت مع سلام، نظر لي ونظرت له، اقتربا وجهينا، كانت عيوننا تتلامع بفرح وسرور، لقد قبلني وقبلته من فوق تيغة السطح، التي كنا نسميها خط بارليف لشدة تماسكها ولا تقبل أن تتهدّم، أو تقلع منها طابوقة واحدة، ألا أن خط بارليف سقط بيد الجندي المصري وهذه "التيغة" لم تسقط بأيدينا، لقد اشتركت أكفنا في هذا التقبيل، تعانقنا، وكان شعري يلهب أنفاسه بالحب، ورائحة جسده تتوهج في منخريّ، بقينا أكثر من ربع ساعة نحتضن بعضنا، و"التيغة" تفصل بين جسمينا من البطن إلى أخمص أقدامنا الواقفة على علب دهن معدنية، فارغة، وكدنا نذوب في حبنا، وننسى الوجود، لولا صراخ أمي تناديني إليها في تلك اللحظة.

كثر الأشخاص والعوائل المحجور عليهم في الكرفانات المعدة كمستشفى حجر للمصابين بوباء الكورونا، وأضافوا كرفأنات أخرى إليها، وكثر الأطباء، والممرضون، وهم يرتدون الملابس الزرقاء والبيضاء، والمعدات، التي تحميهم من انتقال فيروس كوفيد/ ١٩.

***

الفصل/٣

عندما تنثال الذاكرة بصور تكون مدّعاة للفرح والسرور الذي تأتي به بعض الأحداث والمواقف، حيث تضخ السماء في الروح، كل ما هو مفرح، ومسرّ، فأهلا به ومرحبا، وأبواب القلب والنفس مشرعة له. وعندما تضخ السماء في الروح، صور مدّعاة للألم، والحزن، والأتراح، التي تأتي بها بعض الأحداث، والمواقف، فلا أهلا ولا سهلا به، وبالأحداث والمواقف المسببة له، وأتمنى أن تكون أبواب القلب والنفس مغلقة ومقفولة، والمفتاح في قعر محيط من الماء الساخن. فعندما تذكّر أنمار يوم التعداد العام الذي مرّ في العراق، أو ما سمى بيوم "الكرصة"[١]، أو "الإنذار"، وهو الاسم الذي سميت عمّة أبيه المتزوجة في البصرة "نذيرة" تيمنا بهذا اليوم الذي ولدت بعده بأيام من عام ١٩٤٧، قال ذلك، وتذكر ذاك اليوم، وكيف أنهم ظلوا في البيت ولم يذهب منهم أحد إلى مكان ما، لكي يستقبلوا مسجل المعلومات العائلية المطلوبة، وقد استعدوا جيدا لمثل

١ - الكرصة: هي الحجر في البيت لأسباب غير المرض، ومنها إجراء التعداد السكاني.

هذا اليوم، طعام وشراب، وكرزات، إلّا أن الحجر بسبب وباء كورونا، يختلف كليا عن حجر ذاك اليوم، إذ كان الأول يحدث كل عشر سنوات، وبرضى الناس، أما العزلة التي وضع الناس فيها أنفسهم، ومن ضمنهم عائلة الحاج ريحان وابنه أحمد، هي ليست برضى منهم، وإنما بأمر من خلية الأزمة. كان الناس مجبورين، بل أن الناس الكسبة الذين يعتمدون على رزق يومهم الذي يخرجون فيه للعمل، قد ظلوا بلا مورد مالي لهم ولعوائلهم، إلّا أن ذلك هو إجراء مقبول لتتجنب الناس مغبة الإصابة بالوباء الخطير الذي اجتاح العالم بأسره، فراحت الأخبار تتوالى عن مصابين وموتى في العالم، إن كان ذلك في القنوات التلفزيونية، أو فيما ينشر في مواقع التواصل الاجتماعي في شبكة الأنترنت، أو يصل بواسطة المحمول بين الأصدقاء بصوت لا يحمل أي تفاؤل، أو سرور، أو فرح. كانت كل أخبار الكورونا، وفيروس كوفيد/١٩، قد أصبحت بلا ثمن، ومتاحة للجميع، بل أن الجميع قد أصبح مهتما بها، ويبحث عن أخبارها.

وحكومة العراق ظلت مثل هذا الذي حدث في حلم الحاج ريحان، وحلم الفرعون أيضا. فيما كانت خلية الأزمة تدعو المواطنين إلى الحجر في البيوت خوفا عليهم من الإصابة، لم تشدد في إجراءاتها في عدم

الخروج بحجة التسوق لشهر رمضان، ولكن السبب الرئيسي الذي دفعها إلى ذلك، لا تريد أن تعلن عنه، لأسبابها المعروفة وغير المعروفة، وهو أنها لا تريد أن تدفع للكسبة معونة شهرية كما تفعل الدول الأخرى. وكان المنظر الذي عرضته شاشة إحدى الفضائيات عن مجموعة من المتسولين، نساء ورجالا، وقد شكلوا في جلوسهم صفا واحدا على امتداد الشارع، قد شدّ أبناء العراق، وهذا أحد أسباب عدم تشددهم في مسألة الحجر، لأنهم يريدون أن يمرروا خططهم الاقتصادية الفاشلة على كل المستويات، وسرقات أحزابهم المفضوحة.

رد أنمار على صديقه الذي أرسل هذه الصورة للمتسولين في جهاز المحمول قائلا:

– نعم رأيت هذا المنظر الذي يدمي القلب، ومن المؤسف أنه يحدث على أرض عائمة على النفط، وليس في بلد أفريقي جائع.

وصل له حديث صديقه واثق بالمحمول من بغداد عندما وصل إلى داره متعبا، منهك الأعصاب، بعد يوم قضاه قريبا من المستشفى/ الكرفانات التي يرقد على أسرّتها البيضاء أفراد عائلته وهم ينتظرون الفرج من إنسان كافر، حسب مفهوم الأحزاب الدينية، يضع علاجا لهذا المرض الذي طال الناس جميعا.

سأل صديقه وبالكاد يتحدث لتعبه:

– هل سيبقون الحظر مدة الوباء؟

أجابه واثق قائلا:

– لا أعرف، المهم أن الناس يعرفون أن الوباء في انتشار متزايد.

قال أنمار:

– لكنهم لم يلتزموا بقول خلية الأزمة.

قال واثق:

– سيتعوّدون على ما تقوله الخلية، وسينفذون تعليماتها.

رد عليه أنمار قائلا:

– أن تسفيه تعليمات خلية الأزمة أخطر بكثير من وجود الوباء، لأن الناس سيجعلون أنفسهم عرضة لفيروس كوفيد/١٩.

ضحك واثق، ثم قال:

– أتعرف أن بعض الناس أصبح يائسا من الحياة ويتمنى أن يموت ولا يستمر في العيش مع هذه العملية السياسية.

ضحك الاثنان سوية من كل قلبهما ونسيا كل مشاغلهما اليومية، بعدها قال أنمار لصديقه واثق في المحمول:

– آمل أن لا تسري هذه الروح اليائسة لشباب ساحات العراق الثائرة، وكذلك للعراقيين في هذا الزمن الأغبر، زمن كورونا، وأيضا أن لا يصبح النظر إلى هذا الوباء على أنه روتين يومي تعودوا عليه، وعاشوا فيه.

لقد نزلت المصائب على رأس أنمار كسحب الشتاء المدلهمة، والمحملة بالمطر، والزوابع، إلّا أنها لا تمطر، ولا تغيث. وكان حاله حال الناس المحجورين في البيوت، لقد أصبح مثل حمار الناعور في هذه الأيام يدور بين البيت والمستشفى، وبين المستشفى والبيت. وكان خروجه في هذه الوقت هو بدافع الزيارة لعائلته المحجور عليها في المستشفى، وليس لغرض آخر، وفي المستشفى لم يأذنوا له بالدخول إلى المستشفى/الكرفان الذي نصب وجهّز لاستقبال المصابين بوباء فيروس كوفيد/ ١٩، وكل الذي فعله أنه تحدث مع شقيقته نوال بالمحمول، فنقلت له أخبار العائلة حتى أصبح كالموجود في وسطهم، وكان هذا ما يحصل له كل فجر حتى المساء من كل يوم، وقبل أن يرفع الآذان لصلاة العصر يعود قافلا إلى بيته الفارغ من عائلته، بعد أن تأكد أن إدارة المستشفى قد هيأت لهم الأكل والشرب، وما يتطلبه حجرهم فيه من مستلزمات أخرى. وفي طريق عودته وهو يجلس قرب سائق سيارة الأجرة، الذي ضبط مذياع سيارته على اذاعة تقدم مذيع يقرأ نشرة أخبار

الاصابات بكورونا، كأنه يعلن انتصارا ثوريا، وكان السائق لا يصغي إليها، ولا أنمار حتى، حيث كل شخص كان بشأنه مشغولا بفكره. كان نسيم الشارع البارد المشبع برائحة لم يتوضّح له كنهها يتدفق، وقد أنعش وجهه الشاب الذي طالت شعيرات لحيته بعض الشيء. كان يراقب ما يحدث خارج سيارة الأجرة، وكانت الشوارع التي تمر فيها السيارة فارغة من المارة، وتمر فيها السيارات بعدد قليل جدا. مرّ كلب من أمام سيارة التكسي وكادت تدهسه، عبر إلى الجانب الثاني من الشارع، وما زال يركض حتى تضاءل حجمه ثم غاب في شارع جانبي. وإستسلم لمنظر "دنگ"[1] الرصيف على ضفتي الشارع، حيث كانت تقف منتصبة بألوان دهانها، واسمنتية كالحة بلا دهان، فإنشغل بها وكأنها تتحرك الواحدة بعد الأخرى، مسرعة ومتتابعة، كأنه يقلب صفحات كتاب بسرعة عالية وضع في زاوية من الورقة الأعداد متسلسلة فكان يراها عند التقليب تأخذ التدرج الحسابي لها إلى أن إنمحت صورتها من عينيه عند مرأى ساحة الحبوبي بتمثالها الواقف بشموخ، وشجيراتها التي غادرتها عصافيرها وهي تملأ هواء الفضاء المحيط بها بخفق أجنحتها الصغيرة، وبخيمها التي عقمت

١ - دِنَگ: المفرد دِنگَة: أي عمود.

وعفرت صحيا، وقد فرغت من الشباب الثائر الذي يصدح صوته عاليا بهتاف "بالروح بالدم نفديك ياعراق"، سوى من شخص واحد أو اثنين وهم يضعون الكمامات البيض ويرتدون القفازات الزرق، في هذه اللحظة تذكر أخاه سليم، توأمه، الذي استشهد بقنبلة دخانية قبل شهرين عندما كان مارا في الساحة وهو ذاهب إلى محل أبيه، إذ إنه لم يكمّل دراسته مثله. كانت همومه لا تتعدى هموم المحل، ولا يشغل باله ما يحدث في ساحة الحبوبي، وفي الساحات الثائرة في المحافظات، وكان يقول لأنمار يكفي انك ونوال من الثائرين. أثناء التشييع، قال أحد المشيعين:

– لعنة الله على القنابل الدخانية ومن يرميها، انها تصنع الأرامل.

صاح مشيع آخر:

– لم تصنع الأرامل يا حاج لأن شهداءها شباب غير متزوجين.

تذكر ذلك ونزلت دموع عينيه على خدّيه حارة لاسعة، كلسعة ابريق الشاي لجلد طفل يزحف لاكتشاف العالم الذي يحيط به. مرت السيارة بشارع النيل الموصّل بين ساحة الحبوبي وجسر الحضارات الذي لم يكن تصميمه هكذا، كان هدية من دولة أجنبية، لقد قلصوه إلى هذا الشكل الذي يبدو فيه الآن، ولا يعرف أين ذهبت الأموال المسروقة المخصصة للتصميم الأول، فيما ظهر بتصميم آخر. كانت حركة السيارات شبه

معدومة، والرصيف فارغا كليا. وكانت محال الاستنساخ، والدكاكين، والمقاهي مغلقة جميعها، وعند الاستدارة إنعطفت السيارة إلى اليسار، خفف السائق من سرعته قليلا، وقد سارت السيارة بمحاذاة نهر الفرات الأزلي الذي تراءى لي وكأن ماءه أسودا حزين على أهل المدينة التي يجري فيها، وكان كما عهده، صابرا محتسبا كالأبدية. فيما اشتعلت رؤوس النخيل وبعض البنايات في الصوب الثاني[١] بتوهج ذهبي لا ينفك عنها، وقد كان وقت الغروب يبعث أشعته الذهبية المحمرة والمتوهجة فتنعكس على ماء النهر السوداء فتشتعل فيها النار لتعلن عن غروب الروح، كغروب الشمس، وضفتا النهر تكادان أن تلتقيا فيما بينهما، وكان الشارع ضيقا، هادئا، ساكنا، خالٍ من المتنزهين، ولا شيء فيه سوى بعض العلب البلاستيكية الفارغة وهي تتحرك بفعل الريح التي هبت هادئة وكأن فيها روح تحركها، حتى الحيوأنات الأليفة غادرته، ولم يعد يرى أي حيوان في شوارع المناطق التي مرّ فيها. وكان أشد ما يؤلمه هو نصب الجندي العراقي البطل حسين ارخيص وهو شاهر مسدسه في الهواء كأي مجرم من هذا الوقت، بعد أن قتل الجنرال

١ - الصوب الثاني: الجانب الثاني من النهر.

الانڤليزي "جيفرسون"، وقد اختنقت أنفاسه في المادة التي صنع منها النصب على تفريغه من مضمونه الأساس في فعل البطولة ضد الانڤليز. كان النصب يضم جسد الجنرال المقتول والممدد تحت أقدام البطل، قبل العدوان على العراق، إلّا أن الانڤليز بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣ رفعوا تمثال الجنرال المقتول، وأبقوا على تمثال البطل حسين إرخيص وهو شاهرا مسدسه في الهواء كأي مجرم من هذا الوقت، وهذا ما صرف عليه أنمار تأوهات حارة يبثها من قلب محروق، فقد قتل أخيه في ساحة الحبوبي كما قتل هذا النصب.

كان أنمار قد عاد من بغداد بعد اليوم الثالث من رقاد عائلته في المستشفى، وقد علم من شقيقته نوال إنهم محجورٌ عليهم في المستشفى لحين التأكد من أنهم غير مصابين بفيروس كوفيد/١٩، أما جدّهم، ووالدهم، فهم تحت العناية المركّزة في غرفة الإنعاش يتنفسون بواسطة جهاز التنفس الإصطناعي، والأجهزة الأخرى، لأن الفيروس قد تمكن منهما، والوقت كفيل بإظهار النتائج. وهناك نوعان من الحقيقة، الأول: حيث يتوجب أن تكون النتيجة هي الموت. والثاني: وهو المهم، هو أن تنجو وتبقى حيا، وبقية العائلة يتمنون الحقيقة الثانية التي تفرحهم جميعا.

ظل أحمد الحاج ريحان حاملا للفيروس ستة أيام دون أن تظهر عليه علامات المرض، فلا حرارة مرتفعة، ولا حكة في بلعومه التي تدفعه للسعال، ولا سعال، وجسده ما زال بعافيته المعهودة، وبعد عودته من رحلته إلى ذلك البلد المجاور بيومين بدأ والده بالسعال، حتى تفاقم عليه، وبحك بلعومه من الخارج، حيث شعر أن شيئا ما في ذلك البلعوم يحكه، وبدأت درجة حرارة جسمه ترتفع، فعرضه أبنه على صديقه طبيب الصدرية الذي أكتشف إصابته بفيروس كوفيد/١٩، ولكنه لم يخبرهم، وإنما أرسلهم إلى المستشفى هو وابنه للتأكد.

عندما سألته نوال في الهاتف المحمول وهي ترقد بمفردها في غرفة الحجر، قائلة:

– لماذا لا تبقى في بغداد لإدامة زخم الثورة؟

رد عليها قائلا:

– الحياة أهم من الثورة، فلولا الحياة التي فينا تنبض بحرارة لما كانت هناك ثورة، إننا ثائرون لأننا أحياء، وقد بلّغنا كل الثائرين بضرورة مغادرة ساحة التحرير للحفاظ على حياتهم، وقد ذهب الكل لبيوتهم، إن كان ذلك في بغداد أو في المحافظات.

سألته مرة ثانية:

– وأين ستنزل؟

رد عليها بثقة:

– في البيت، سأفتح الدار وأنتظر خروجكم.

قالت له واثقة:

– سنخرج أنا وأخي وأمي وجدتي بعد أن نقضي أربعة عشر يوما في الحجر، لقد ظهرت النتائج الأولية لفحصنا، وإننا لا نحمل الفيروس، أي النتيجة سالبة "negative" وسوف يكرّرون ذلك مرة أخرى.

قال لها بنبرة خائفة وفيها شيء من القلق بان على ارتعاش صوته:

– إلّا أن جدّي وأبي سيبقون إلى أن يشفوا وأتمنى لهم الشفاء، إنهم في العناية المركزة، أليس كذلك؟

كانت عيناها قد تخضّلت بسائل رقيق وقد غلبها التفكيرالعاطفي أكثر من التفكير العقل. قالت له بنبرة من ينقل خبرا جديدا:

– نعم، وقد سمعت أن المسنين هم المرشحون للموت، خاصة المصابين بأمراض القلب والسكري، أرى ان جدّي لن يصمد بوجه الموت. وبدأ صوتها يرتجف، وتابعت: أما أبي، له طول العمر، فإنه يلاعب الموت وحتما أراه منتصرا عليه.

سمع أنمار صوت نوال قد بدأ يرتجف، ثم بدأ صوت نشيجها وهو يأتيه عبر الهاتف المحمول، فإضطرب لذلك، إلّا أنه حاول أن يكون أكثر تماسكا، وأكثر قدرة على التحمل، تساءل: هل كانت نوال تهتم بهندامها كما في باقي الأيام، أم أنها تركت ذلك في زحمة هذا الوباء القاتل؟ ابتسم وأخذ فسحة قصيرة للابتسام من زحمة وباء كورونا، ولكنه لم يعرف أنها ما زالت كما عهدها دوما، فتاة تهتم بهندامها، وبتسريحة شعرها الذي تتركه خلف رأسها مثل ذيل حصان شارد، وبإبتسامتها الدائمة، والمحببة، كما كانت، قال لها ليهدّيء من روعها، بعد أن مرت دقائق من الصمت الذي تخلله صوت بكاء نوال، وحسرته هو، وتأففه، وتأوهه، فقد كاد أن يفقد بوصلة اتجاهه لولا تماسكه تلك اللحظة:

– اهدئي يا عزيزتي، أفهم شعورك تماما، علينا أن نكون واقعيين، وعمليين، في النظر إلى الأمور، كوني متفائلة، الحياة طويلة أمام جدي، حتما أن العلماء سيهتدون إلى اكتشاف الدواء الناجع لمثل هذا الوباء، وسيتماثل جدي وأبي للشفاء، ستكون هذه الأيام "سوالف" تحكى، ويتندر بها، انتِ الوحيدة التي أعتمد عليها بين العائلة، يجب أن تكوني أكثر تماسكا، ورابطة الجأش. أكدت له بأنها يمكن الإعتماد عليها، على الرغم من انها، في مرات عديدة، كادت أن تفقد السيطرة على نفسها.

وكان هو يعرف أن جده مقضي عليه بالفيروس حسب ما يقال وينشر من التعليمات والوصايا الخاصة بفيروس كوفيد/١٩، وهي كذلك تعرف هذا، إلّا إنهما لا يصرحان بذلك ويعطون أملا لنفسيهما ولعائلتهما، وهو أمل كاذب، وهي أكثر عاطفة من أنمار الذي يتصف تفكيره بالعقلانية.

كان ليل الشتاء في المدينة طويلا، وفي الكثير من الأحيان بارد ثلجي، وكانت هذه الليلة هي من هذا النوع، وكأنه يريد أن يقمع الروح الحماسية لأهالي المدينة، والكامنة في نفوسهم الثائرة، حتى أن أنمار خضّته رجفة وهو في الطريق إلى بيته، ولكنه ظل متماسكا كي لا يظهر تأثره ببرودة الجو أمام سائق سيارة الأجرة. وصل إلى البيت منهك الأعصاب، مشتت الأفكار، متهالك الجسم، لم يبق فيه عضوا لم يطاله التفكّك، والانحلال، والتعب، فعندما يكون الجسم صحيحا ومعافى، تكون النفس هي الأخرى صحيحة ومتعافية، كما قال هو لأخته قبل قليل في المحمول وهو يوصيها أن تبقى متماسكة وأن تحافظ على صحتها، وهكذا وصل إلى بيته، وكانت صورة جده المرمية على الأرض أول ما صافحت عينيه التي بالكاد يستطيع فتحهما، إذ يسحب النعاس أجفانهما إلى أن ينطبق الواحد على الآخر. كانت تلك الصورة قد التقطت في مدينة مكة، لم تكن داخل الكعبة، كما تريد أن تقول، وإنما داخل استوديو

عدّ لذلك، حيث وضعت خلف الحاج صورة كبيرة للكعبة، ووقف قريبا منها، وهي تُظهِر الحاج بشاربه، وحاجبيه، الكثين، وبشعر رأسه الذي قص نمرة صفر، كمن يقف قرب الكعبة الحقيقية. فيما كانت الصورة الثانية التي هي الأخرى مرمية على الأرض لوالده أحمد بن الحاج ريحان، وهو حليق الشارب، بان من تحته ابتسامة صغيرة على شفتيه، وقد وقف بالقرب من ضريح الإمام الحسين، ولم تكن الصورة حقيقية أيضا، بل كانت أمام صورة كبيرة للضريح داخل استوديو في كربلاء. هذه الصور هي التي طالها التعقيم والتعفير كما هو واضح من آثار ذلك عليهما، ومن سقوطها على الأرض، وكما تم تعقيم وتعفير كل الأضرحة في العراق، وفي السعودية، وفي إيران، كما أخبر صديقه واثق من بغداد بالمحمول، فقد ظهرت مشاهد التعقيم والتعفير على شاشات التلفزيون، وتابع القول:

– واثق، صدقني أشعر كما يشعر أي شخص فقد أحبابه، كان كل شيء موحشا لي كوحشة يوم العاشر من محرم على زينب وما معها من أطفال ونساء كما تروي القصة.

في مثل تلك الحالة التي أخبر عنها صديقه واثق، استقبل أنمار، وهو بهذه الحالة المزرية، بلحيته التي نبتت أكثر من اللازم، وبقميصه المتسخ

الياقة، وبشعر رأسه غير المرتب، وبالتعب والنعاس الذي هدّ حيله، وبحاسة الشم التي تشبعت بمعقمات المستشفى، من اسبرتو وديتول، فبدا نحيلا أكثر مما يجب، خاويا، لا يستطيع الحركة، أو الكلام، استقبل الجيران وهم يسألون عن أخبار العائلة، خاصة عن جده، ووالده، فيما كلهم دعوه إلى أن ينزل عندهم، بعد أن أرسلوا له طعام العشاء، وأرسل له أبو علي صاحب المخبز الذي في منطقتهم السكنية شجار[١] خبز، وكذلك صبرية، المرأة التي تعيش مع ابنتها، وزوجة وأولاد ابنها الذي انقلبت به سيارة الأجرة التي يعمل عليها سائقا على طريق بغداد – ناصرية، قد أرسلت له صينية مع ابنتها "دلال" محملة بألوان عديدة من الطعام، وكان أن استلم منها الصينية المغطاة بشرشف أبيض، وودعها، فعادت إلى بيتها كاظمة غيضها لمّا شعرت به من جفاء أنمار لها. فكر في نفسه وقال في قلبه: لم يكن ذلك جفاء مني، ولكنه التعب الذي هدّ حيلي ونفسي يا حبيبتي دلال، لهذا اضطربت نفسه كثيرا، لم يعد يشتهي كل هذا الطعام المرسل له من الجيران. نظر إلى المطبخ وقد إمتلأ بالصواني المعدنية والبلاستيكية، حتى أنه لم يكد يعرف أي صينية لهذا

١ - شجار خبز: شجر أي سعر، أي اشعل النار، وشجار الخبز هو ما ينتج من خبز بإشعال التنور مرة واحدة.

البيت، وأي أكل من ذاك، فإنتشرت في المطبخ رائحة الزيت المحروق، والطرشي، والخبز الحار، والصمون المختمر[١]، والدجاج المشوي. لقد تمكن منه الجوع، إلّا أن نفسه قد عافت الأكل، فتمدد على سريره حتى فتح له النعاس ذراعيه الهادئتين، فداعب عينيه كشيء يشبه نسمة هواء شفاف، أو كعطر انتشر في الفضاء فغفى، ونام نوما عميقا حتى فجر يوم جديد.

كان أنمار يحب دلال، وكانت دلال تحب أنمار، وكلاهما طلاب مدارس، إلّا أن دلال طالبة في الصف السادس العلمي، وهو طالب في كلية الفنون الجميلة، وقد رسم صورتها أكثر من مرة في تمارين الدرس. إمتدت علاقة الحب بينهما أكثر من أربع سنوات، وقد علم كل من في عائلته بحبه لدلال، ووعده جده ووالده إلى إنهما سيطلبان يدها من أمها في العطلة المدرسية القادمة.

تذكر قولها وهي ترغب في إغاضته، عندما اختلى بها في غرفته ذات يوم وكانت الدار خالية من أهله:

– كل الأطفال في العالم يرسمون، وأنت منهم.

١ - المختمر: الصمون أو الخبز المختمر أكثر من اللازم.

– حقا! قال ذلك وضحك من قولها. لم يكن يقهقه بل كان ضحكه عاليا، وبصدق، حتى خشي أن يفضحه ضحكه، قال لها:

– إلا أني غادرت مرحلة الطفولة، وإلّا ما كنت أحبك بهذا العشق، والهيام. أنا الآن استطيع أن أعيد صياغة العالم كما أريد.

ضحك مما تذكره في هذا الوقت، وكان لوحده في الدار المعفّرة والمعقمة جيدا من قبل المفرزة الخاصة التي أرسلتها مديرية الدفاع المدني لهذا الغرض. كان يشعر بالحزن. وكان يحس ببيبوس شفتيه، وبلعومه، فتذكر أنه لم يذق طعم الماء، أو أي سائل طيلة هذا اليوم، ولم تكن عنده القدرة على أن يملأ قدح ماء ويشربه، فظل عطشأنا إلى اليوم التالي، حتى أنه لم يتذكر إن كان قد أكل أم لا خلال هذا اليوم. وكان كثيرا ما يتمنى أن تنتهي هذه الأيام السود التي حلت بالعالم ويعود إلى ساحات التظاهر مرة أخرى وبقوة. هذا ما أخبر به شقيقته نوال في حديثه معها على المحمول.

قالت له بنبرة غضب:

– لماذا أتيت؟

قال لها وهو يحاول أن يهديء من روعها وهي في الحجر الصحي:

– كان يجب أن أأتي، لقد أنفضّ جماعتنا في ساحة التحرير، وكلهم ذهب إلى أهله بسبب هذا الوباء اللعين.

كان ذهن أنمار في الكثير من الأحيان يشرد إلى ساحات الثورة، ويغرق في زحمة ذكريات أمور ساحة التحرير وقد أصبحت من الحكايات القديمة بعد أن حُلت، وانتهت. كان كمن يسترجع ذكرياته الجميلة، والمرّة، عن تلك الأمور الصغيرة، أو الكبيرة، التي جابهتهم في ثورتهم ضد حكم الأحزاب، ومحاصصتهم البغيضة، ونهب ثروات العراق، إلّا أنه يعود مرة ثانية لواقعه، وواقع عائلته الموزعين بين ردهات الكرفان/المستشفى حيث لا حول ولا قوة له حيال ذلك. كان كمن لا يدَين له، أو إنهما مكبلتان خلف ظهره. وكانت المدينة تغرق في سكون تام، في فضاء يقطر سوادا أشد من الكحل، بارد لا يطاق، ولا يقوى عليه شخص عنده مرض الروماتزم في المفاصل، حتى. وكانت الشوارع وأرصفتها خالية من كل شيء، فيما كانت الكرفانات/المستشفى قد أضيئت كل مصابيحها، وأجهزة التنفس الصناعي تعمل بكل طاقتها، وبين لحظة وأخرى يدخل مصاب، أو أكثر ليرقد على سرير المرض، ويندس في عالم البياض، ويوضع له ماسك الأوكسجين، وجهاز قياس بارومترات القلب، وجهاز "أوكسميتر" لقياس كمية الاوكسجين في الدم.

تذكر كل هذا وهو يسدل جفونه على رؤية حاله حتى أخذه النوم في عالمه الغامض. فيما نور الغرفة مثل ضوء النهار، وأشد.

***

الفصل/ ٤

الرسم بالألوان الزيتية شيء مريح، وغنيّ بالإبداع، والفرحة التي لا تصطدم بقلم الفحم، أو الرصاص، إنما يتم تخطط الشكل الأولي بالفرشاة لِما يريد الرسام أن ينفذ الموضوع على قماشة اللوحة، إن كانت هذه القماشة مصنوعة من الكنفاس، أو من القطن، أو السواحل[١]، وأيضا، فهي ألوان مطواعة، وقابلة للتعديل، الحذف والإضافة، إذ يمكن تلافي الأخطاء الصغيرة، والكبيرة، بالفرشاة والألوان الزيتية إن وقعت، ومن هذا المنطلق، كان أنمار يفرح كثيرا عندما يحين وقت هذا الدرس حتى يصعد عنده التركيز الذهني إلى أعلى درجاته. كانت هذه لغته منذ ان رسم أول لوحة زيتية في مرسم المدرسة. كانت ألوانه الزيتية هي حروف لغته التي ينطق بها، وحتى وهو في سوح الثورة التشرينية يتكلم في الرسم والألوان الزيتية ولا تسقط من فمه. أما الآن، حيث أصيبت عائلته بفايروس كوفيد/١٩ فهو يتكلم بالرسم، والألوان الزيتية، وهو القائل: عندما تكون

١ - السواحل: نوع من القماش بياضه داكن (أسمر).

رساما لا يكفي أن ترسم، وإنما عليك أن تتكلم رسما. فهو يتكلم ولا ينفك عن ذلك، وسيترجم هذا الكوفيد إلى لوحات زيتية كبيرة خطط في ذهنه أفكار موضوعاتها.

كان الربيع قد طلّ بأيامه الرائعة على بغداد، فكان الجو مريحا، والرياح خفيفة، وفيها شيء من البرودة، وقد تفتحت ورود وأزهار حديقة الكلية، وانتشرت رائحة القداح في أرجائها، وكان مزاج أنمار معتدلا لأنه سيضع الوجه المحبب له على قماشة الرسم للمرة العاشرة، ويلونه بالألوان الزيتية التي يختار، وقد أعجبته هذا اليوم ضحكة الموناليزا التي رآها للمرة الألف في اللوحة المنقولة على اللوحة الأصل لأستاذ في الكلية مهتم برسم لوحات زيتية عن اللوحات الأصلية لفنانين أجانب عندما كان يدرس في باريس. جال في خاطره أن يرسم ضحكتها مثل هذه الضحكة، وهي ليست ضحكة وانما شبح ابتسامة، عليه أن يجعلها ضحكة حقيقية، بعد أن تمتم بينه وبين نفسه: ولدت لأكون رساما لأجلك يا دلال، قد يتهمني البعض بأنني فنان ذاتي، أو يرمونني بالحجر، أو يقتلونني حتى، لأني رسمتك أنت يا دلال، لكنني سأرسمك أنت دائما وإلى الأبد، ولهم الحق أن يضعوا صورتك أنّى شاؤوا، أو أن يمزقوها فأنت في القلب. وكان أن وضع في ذهنه أن يجسد بعض قصائد الشعر العربي القديم في

لوحات عديدة، وكان من ضمن ذلك المشروع أن تكون بطلة هذه اللوحات هي بالذات، دلال.

قالت له زميلته سناء بعد أن رأت لأول مرة كيف تهلل وجهه وهو يدخل قاعة درس الرسم بالألوان الزيتية، وهي تعرف السبب، فقد أخبرها أكثر من مرة عن السبب، وزملاءها الطلاب كذلك يعرفون:

– أرى وجهك قد تهلل فرحا؟

كان أنمار يضع لوحته البيضاء المصنوعة من الكنفاس، والإطار الخشب، على حامل اللوحات. وقد كانت مقاعد الجلوس مبعثرة في الصف الدراسي، وحاملات اللوحات متناثرة في عدة أماكن، وقد وقف قربها الطلاب وهم يهيؤون الألوان، والباليتات، والفرش. وكان كل شيء صامت سوى صوت حركة الأشياء البسيطة التي يقوم بها الطلاب للاستعداد للرسم، رد قائلا:

– هل تعلمين أن الألوان الزيتية تجلب لي السعادة، وأسرّ بها أيّما سرور؟

ضحكت وقالت:

– والألوان الباقية؟

كان الطلاب الآخرون غير متساوين بما يحبون أو يكرهون، بما يشعرون، أو لا يشعرون تجاه الألوان، فالكل يتمتع بالحرية في دروسهم. رد عليها وهو يبدأ بتخطيط لوحته بالفرشاة، وبلون سمائي فاتح من زيت أنبوبة مضغوطة بعض الشيء:

– الألوان الباقية لا أهتم بها كثيرا، لأنني أجد نفسي تنقبض من مرآها، وهذا لا يعني عدم ممارستي لها في لوحاتي، أمامي تقف القماشة البيضاء، والورقة البيضاء في الدرجة نفسها، ولكن الفرشاة الرئيسية تختلف، فتلك عريضة، إلا بعض الفرش الصغيرة، وهذه رفيعة، ومدّببة، والألوان كذلك، الأولى تحتاج بعض السائل المخفف، وإلى وقت ليس بكبير لتجف، وهذا يعطي الفنان حرية في بعض التصحيحات، أو الإضافات، أو الحذف، والثانية يخفف بالماء، وتعد لونا سريع الجفاف، فلا حرية للفنان بإستخدامها.

تدخل زيد الطالب في قسمهم في الحديث وقال لأنمار:

– هل ترافقني لاجتماع تنسيقية الجامعة للمظاهرات؟

رفع أنمار يده من على قماشة اللوحة التي كان يمسح عليها ليزيل بعض ما علق عليها من أشياء تجعل سطحها خشنا، ويجعلها ملساء، قال:

– بالتأكيد يا صاحبي، إنتظرني بعض الوقت.

رفع اللوحة وحاملها الخشبي، بعد أن وضع أنابيب ألوانه، والباليت، والفرش في حقيبته اليدوية، وودع زملائه في القاعة وغادرها.

تم انتهاء الاجتماع، وقد قررت التنسيقية فض التجمعات، وإنهاء التظاهرات، والعودة إلى البيوت، بعد ترك اثنين أو ثلاثة من المتظاهرين في الخيم.

كان هذا الذي قررته التنسيقيات، وقد خوطبت به التنسيقيات الأخرى في ساحات التظاهر في المحافظات، وقد جاء ذلك بسبب تفشي وباء كورونا.

كان الرسم هو حلم أنمار الذي وعى عليه، وقرر أن يحققه، كقرار الديدان بالاستقرار في جوف فاكهة التفاح، وكانت الخطوط والألوان هي ما تثير نفسه منذ أن رأى القراءة الخلدونية ورسومها البسيطة، والجميلة، والملونة. وكان والده قد سجله في الصف الأول في المدرسة الشرقية النموذجية الابتدائية. وكان أن استلم كتاب القراءة الخلدونية، وقد انبهر برسومها، وألوانها، وقد أدهشته كثيرا، حتى بات وهو لم ينفك عن استمرار النظر في تلك الرسومات. اشترى ورق الكاربون الأسود، وأخذ ينقل تلك الرسومات من الكتاب إلى ورقة دفتر عادي، ويلونها بألوان قلم

الخشب الملونة، ويلصقها على جدار غرفتهم. وكان أهله فرحين بذلك، فقد أصبح ابنهم رساما. وهكذا نمت عنده مَلكَة الرسم والخط. وفي الصف السادس الابتدائي دخل مرسم المدرسة، وكان معلم الرسم من خريجي معهد الفنون الجميلة في بغداد. رسم لوحة من الواقع الذي يحدث مقابل مدرسته، حيث سيارات الركاب الخشبية الذاهبة إلى النواحي والأقضية وهي تحمل على سقفها أحمال، وأغراض الركاب. وكان هناك حمال يرفع كيس حبوب إلى سطح السيارة ويصعد به على السلم الخلفي. كان لأول مرة يستخدم الألوان الزيتية في تلوين ما يرسمه، وقد اشترك بهذه اللوحة في المعرض السنوي الذي أقامته مديرية التربية في المحافظة. وعندما انتقل إلى الدراسة المتوسطة، كانت المدرسة تفتقد إلى المرسم. وكان مدرس الرسم غير جاد في درسه، فإنتقل إلى مدرسة ثانية. كان فيها مرسما، ومدرس نشط، فرسم مجموعة من اللوحات السريالية، واشترك في المعرض الموحد لمدارس المحافظة. كان الرسم هو الذي دفعه إلى أن يختار مدرسة ثانية وينتقل إليها. وكان فيها مدرس يحترم درسه، إذ اسقط الشعلة المقدسة للرسم في جوفه.

هكذا كان يعشق الرسم والألوان الزيتية، وقد شارك في رسم مجموعة من الجداريات في نفق ساحة التحرير عند اشتراكه بالتظاهرات، والثورة،

وكانت الهتافات تدوي في الساحة، والتظاهرات قائمة لا تخبو، ولا تكل، وأعلام العراق ترفرف على رؤوس المتظاهرين، وكان "جبل أحد" [1] يكتظ بالثوار وهم يتطلعون إلى العناصر الأمنية فوق الجسر، وقد وضعوا الصبّات الكونكريتية حاجزا لصد المتظاهرين، وعدم العبور إلى الجانب الثاني لنهر دجلة، وقد زينت ساحة التظاهرات بصور شهداء الثورة في المحافظات كافة، وهكذا كان هذا الطقس الشعائري هو المهيمن بلا تكرار، أو أعادة، أوسلفية مقيتة كما كانت الشعائر تطبق في كل عام، في ذلك الوقت مرّت عجلة "تك تك" وهي توزع على المشاركين صور الشهداء على شكل "ميداليات" توضع على الصدر. وكانت الدكتورة شذى هي المسؤولة عن طلاب كلية الفنون الجميلة وهم يجسدون قيم، وأخلاق الثائرين. كان يرتدى بدلة سمائية اللون، "چَّفِت"[2]، وهي البدلة التي يعمل بها. وقد كانت أحدى اللوحات تمثل عناصرها بناية "جبل أحد" العراقيين بكل لافتاته، وناسه، وامرأة واقفة أمام البناية، وعلم عراقي يلتف حولهما رامزا إلى إنهما محروسان من قبل

١ - جبل أحد: الاسم الذي اطلق على المطعم التركي في بغداد.

٢ - بدلة چفت: البدلة التي تتكون من قميص وبنطلون كقطعة واحدة، مثل بدلات العمال.

العراق، وترك العبارات التي يجب أن تكتب على اللوحة إلى وقت آخر عند اكتمالها، وقد قال الرجل المرافق للدكتورة:

– إنَّها لوحة جميلة، فلا شيء يجلب لي المتعة برؤية الجمال مثل رؤية عمل فني جميل ورائع.

قالت الدكتورة شهد وهي توجه كلامها لأنمار:

– وهي لوحة يمكن أن تكون بوسترا كاملا.

سكتت شهد بعض الوقت ثم تابعت القول:

– البوستر ضروري لتظاهرات الشباب الثائر.

وإذا كان أنمار قد رسم لثورة تشرين جداريات مذيلة بأسمه على جدران نفق التحرير، فهو عازم على رسم أكثر من عشرين لوحة عن مرض كورونا، وتأثيره على المواطن. كان قد سرحت نفسه في غفلة منه، إذ إنه فكر في الرسم، وعلى رنة محموله أفاق من غفلته. كان صديقه واثق من بغداد، قال له:

– نعم واثق.

أفاق من غفلته التي راح فيها يحلم برسم اللوحات الزيتية، وعاد إلى واقعه، وواقع كورونا، والوباء، وعائلته المحجور عليها في المستشفى/ الكرفان، وعلى دارهم الخالية من العائلة، وعلى أخته نوال وهي الوحيدة

التي يمكن الاتصال بها لمعرفة أخبار العائلة. كان واثق يصرخ في المحمول ويردد اسمه، وكان الفجر قد ذهب وأصبح الوقت ضحى، رد عليه قائلا:

– نعم واثق.

صاح واثق به:

– أين كنت؟

رد ضاحكا:

– كنت شاردا مع الرسم.

سأله:

– ماذا؟!

– كنت شاردا مع الرسم.

حمل "خاوليه" وسار إلى الحمام. رد على سؤال صديقه الذي سأله عن عائلته:

– هم في المستشفى، وجدي توفي في هذا المرض اللعين، وأنا حائر لا أعرف ما أفعله، مثل "حسن" في الحكاية الشعبية[1] عندما مسكه الوحش

١ - حكاية "حسن أكّال قشور الباقلاء": وهي حكاية شعبية يمكن مراجعتها في كتابي "القصص الشعبي العربي – دراسات وتحليل"- دار الشؤون الثقافية العامة – ٢٠٢٠.

الأسود الذي معه فتاتين أحدهما بيضاء البشرة، والأخرى سوداء، داخل البئر، فسأله أيهما يختار، فظل حسن حائرا، بماذا يجيب، حتى تذكر العبارة التي اشتراها من صاحب الصندوق العجيب، وأنا لا أملك تلك العبارة يا صديقي.

رد واثق عليه:

– الله يكون في عونك عزيزي، المهم أن تكون قويا في هذا الوقت، كن بخير، أتمنى لعائلتك الصحة والعافية، في أمان الله.

وعندما كان صوت واثق يأتيه مودعا له، كان صوت جرس باب الدار يرن بإستمرار وكأن أمرا جللا قد حدث. خرج من الحمام وفي فمه فرشاة أسنانه، فتح باب الدار، كانت حبيبته دلال تحمل صينية على رأسها مغطاة بقطعة قماش بيضاء. دخلت الدار دون أن تنتظر إذن الدخول. كان وجهها غاضبا. قالت له وهي تضع الصينية في المطبخ:

– أرسلت لك أمي هذا الفطور.

أرادت الخروج بسرعة محاولة التملص منه، فداهمته رغبة كبيرة في أن يتأمل وجهها الجميل. مسكها من كتفيها، أدار جسمها، فكان وجهها مقابلا لوجهه، تأمله طويلا وهي تحاول الإفلات منه، فيما خشخشت أساورها الذهبية بغنج ودلال. كانت عباءتها تلقي بظلالها على عينيها

العسليتين. كأن احساس غامض يتسرب الى جسمه الملتهب، وبلا كلام أخذ شفتها السفلى ووضعها بين شفتيه، وراح يمص رضابها. استسلمت له، شاركته في التقبيل، مدت يديها وطوقته، فيما هو طوقها أيضا من خصرها الدقيق الحامل لأردافها المتكورة، وضغط بصدره القوي على نهديها البضين المقبّبين النابضين بالحياة، وحلمتيهما البارزتين، وهما طافحان بالإنفعال، وقد تدلّت من جيدها قلادتها الذهبية وهي تحمل اسم الله، وقد انقطعت من شدة الضم، واختبأت في ستيانها[1] الوردي غافية، نائمة، لا أحد مهتم بها. سقطت عباءتها من على رأسها على الأرض، فبانت تكورات جسمها المتماسكة والوافرة تضيق بثوبها الأحمر الجميل، وكان شعر رأسها الأسود الليلكي يلمع تحت الضوء المنبعث من خصاصات شباك المطبخ، وقد غادر قلبهما مكانهما المعتاد. شعر بأن الدم صعد إلى رأسه، تدفق بشدة في مجاريه، وتجمع في قمة رأسه. صدغاه المشدود جلدهما يدقان كطبل ضخم. تكوّر كل الشبق في معدته الخاوية. ما زال إليها جائعا، متعطشا، محتاجا. انتقل إلى عالم آخر غير العالم الذي هما فيه. كان كل شيء مغردا، مزقزقا، طائرا، حائما. كان

١ - ستيان: حمالة الصدر للنساء.

في الجنة، لا يخرج منها. كان كل شيء قد حدث فجأة وبسرعة، إلّا أنه أخذ وقتا طويلا، وبعد فترة زمنية انسلت من حصار صمته، تاركة أنفاسه الحارة في المكان الذي كانت فيه أذنها منتصبة، وأسرعت إلى الباب وفتحته، وخرجت. كان مذهولا لفعلتها، اندهش كثيرا، وبعد لحظات عادت ثانية للدار. كان وجهها يقطر غضبا، لم يتكلم معها، وتركها تدخل غرفته مباشرة، مسرعة، وجمعت ملابسه المتسخة في صرّة وخرجت. ابتسم من فعلها وتمتم مع نفسه:

– المهم أنكِ لست زعلانة عليّ.

عندما عاد لنفسه، وتذكر الصينية، كانت معدته خالية من كل طعام، أو شراب. كان كمن يمر بفترة مجاعة، فهجم على الصينية بكل جوعه، رفع قطعة القماس البيضاء التي غطّت به. كان كل ما فيها يدع الريق[١] يسيل، والمعدة تقرقر كأنها كتلي[٢] يفور فيه ماء حار. كان كل شيء مهيئا للأكل، شورية العدس، البيض المسلوق وقد قشّر وقطّع على شكل أقراص، والجبن قد تقطع إلى قطع صغيرة تدخل في البلعوم دون

١ - الريق: ماء الفم واللعاب.

٢ - كتلي: هو اناء يشبه القوري لتسخين الماء.

صعوبة، والزيتون قد انفرط في الماعون إلى حبات منفردة وقد تمرغت[1] في سائله الزيتي، والشاي في الإبريق وهو ساخن، والسكّر قد وضع في كوب الشاي، والملعقة الصغيرة فيه. أخذ قطعة من الصمون المقطع إلى نصفين متساويين، ووضع داخلها قرص بيض وأدخلها فمه. عندها سمع محموله يرن عدة مرات:

– أهلا نوال.

قال ذلك واللقمة في فمه تدور بين اللسان واللهاة، فيما كوب الشاي في يده والبخار يتصاعد منه. قالت له نوال بنبرة مثقلة بالحزن:

– بعد غد نخرج من الحجر، ووالدنا كما قال لي الطبيب سيبقى بعدنا يوم أو يومين.

قال لها وهو يلوك لقمته، وقد كان متعاطفا معها منذ دخول والده وجده المستشفى:

– أعرف ذلك، أخبرني الطبيب بكل ذلك، وأوصاني بأن لا نخبر أبي بوفاة جدي إلّا بعد أن يشفى كليا.

قالت له:

١ - تمرّغ: تقلب فيه.

– أبو غائب دخل المستشفى أيضا، وكثر المصابون بفيروس كورونا، وقد جاؤوا بالست ربيعة كذلك، وقد أخبرت الأطباء إنها زارت إيران وقد وصلت قبل يومين.

رد عليها:

– من هي ست ربيعة؟

قالت له مؤكدة:

– هي مديرتي في المدرسة الإعدادية سابقا.

سألها وقد انتهى من الأكل:

– أسألك عن أخبار عائلة نجلاء، كيف هم؟

قالت له بمعلومة لأول مرة يسمعها:

– أتعرف إن سلام قد أخبرني، مثل نجلاء، بأنه قد قبّل ابنتهم نجلاء، وقد أخبر الأطباء بذلك خوفا عليها، ولهذا السبب جاؤوا بعائلتها وحجروهم.

صاح ضاحكا:

– ملعون سلام.

قاطعته قائلة:

– طالع على أخيه الكبير.

ضحك الاثنان في المحمول، قال لها:

– دلال أخذت ملابسي لتغسلها في بيتهم.

ضحكت، وقالت له:

– هذه حبيبتك، وهي تهتم بك وبملابسك؟

سارع وقال لها:

– وبطعامي أيضا.

– لا خوف عليك.

سألها دون خوف أو وجل:

– هل ضياء يتصل بك؟

قالت مترددة:

– أي ضياء؟

قال لها وهو يعرف بحبهما:

– صديقي ضياء.

قالت له:

– ولماذا يتصل بي؟

قال لها ليرفع في نفسها الثقة:

– أنا أعرف كل شيء.

ردت عليه:

- اتصل مرة واحدة ليطمئن على صحة العائلة.

رد بسرعة ليخفف من روعها:

- اسمعي نوال أنا أعرف كل شيء فلا تخفي شيئا عني.

قالت بصوت خافت:

- وروح جدي[1] لم يتصل سوى مرة واحدة.

***

١ - روح جدي: قسم يقسم به العراقيون، مثل وروح النبي، أو وروح الامام الفلاني، أو وروح السيد الفلاني، أو وروح أمي، أو وروح ابني، وهكذا.

الفصل/٥

لوحده ظل يفكر في فيروس كوبيد/١٩، أو كوفيد/١٩، ويخطأ باسمه، لأنه لا يعرف عنه شيئا، حتى اسمه لم يحفظه كما أخبره الطبيب. تساءل وهو مربوط بالأجهزة الطبية كطفل لا تقبل أمه أن يغادر سريره: هل هذا الفيروس مثل الطبقة البيضاء التي تكون على الطرشي عند تخميره؟ أم هو مثل دودة بيضاء صغيرة؟ أم هو، وكان هو يعلم ممن تتكون تلك الطبقة البيضاء على الطرشي، كما قال له أحد المدرسين عندما اشترى كيلو طرشي منه، أخبره بأنها مجموعة من البكتريا النافعة، وأيده بعد سنين حفيده، وحفيدته، وهذا لا يرى بعيوننا هذه، فهو يحتاج إلى أجهزة كهربائية لكي يرى. وظلت أسماء الفيروسات، والجراثيم، والبكتريا، تنزل من دماغه إلى لسانه لينطق بها إلّا أن لسانه لا يستطيع النطق بها، ولا بأي كلمة، فقد يبس وصار مثل الخشبة الجافة، وبلعومه الجاف صار مثل نهر لا ماء فيه، فتشقق قاعه، فبات ينتظر قطرة ماء يبلل بها ريقه فيعود بلعومه إلى الحركة، والأوتار الصوتية تنهض من جديد لتعاون اللسان على النطق، عندها يمكن لسانه أن ينطق.

كان يتراءى له داره من بين رؤاه وأحلامه، إن كانت أثناء النوم أو في اليقظة، يفتح الباب الحديدي عن حديقة صغيرة، ثم على اليمين غرفة الاستقبال التي كانت محلا لبيع الطرشي وأصبحت بعد تغيير خارطة الدار غرفة لاستقبال المعارف والأصدقاء فيها وخاصة في أيام الأعياد والمناسبات مثل، مناسبة ختان أحفاده، أبناء أحمد، ومقابلها ينفتح مطبخ البيت حيث تقضي فيه نساء البيت جل وقتهن وهن يحضّرن الطعام لرجال البيت، ثم الهول، فغرف النوم، فالحمام، والمرافق، والدرج الذي يوصل إلى الطابق الثاني الذي فيه غرفتين للنوم، وكانت غرفة أنمار التي جعلها مرسما له، ومناما، تقع تحت الدرج مباشرة، وهي ملآى بالرسومات، وكانت أحدى الرسومات له شخصيا، تملأ وجهه ابتسامة صغيرة، وقد حلق شعر رأسه كما هو الآن.

ممدد على السرير الأبيض على طول ساقيه، التي مشت آلاف الكيلومترات في حياته ولم تخذله مرة واحدة إلا هذه اللحظات وهو بين هذه الأغطية والأجهزة الطبية البيضاء. أسبل يديه إلى جانبيه كمن يصلي، عندها تذكر الصلاة، لا يعرف كم من الوقت صار له هنا وهو

لم يصلّ؟ كان بطنه يعلو ويهبط، ينتفخ و"يفش"[1]، متجاوبة مع صدره، كل أعضاء جسمه يتحرك شيئا فيها، يجري وينساب مثل دود لا يرى، فيشعر بنبض القلب في صدغيه، دقات متتالية. شراشف بيض، مخدة غطاءها أبيض، والسرير أبيض، يمد بصره في الفضاء الذي يمكن لعينيه أن تبصره فيرى كل شيء أبيض في أبيض، ثلج، أو ما يشبه الثلج، قطن أبيض، أجهزة بيضاء، وكِمامة يأتيه من خلالها الأوكسجين الذي لا يرى وهو يمر عبر أنبوب شفاف، فيدخل منخريه وفمه، ليعلو صدره ويهبط، بسرعة وبقوة. وكان في ذلك صعوبة يشعر بها، وثقل كبير جاثم على صدره، فيما داخل صدره يحس بشيء يأكل في رئتيه فلا يتركها تأخذ الشهيق بسهولة ويسر، ولا تدفع الزفير كذلك.

كان يتكلم بلا صوت، ويتحدث مع الجميع ولا أحد يشاركه الحديث، كل مبتلى بضيمه، ويتراءى له ما يتراءى للآخرين من أمور وأشياء. كان يردد مع نفسه: هذا أبي، وتلك أمي، وذاك عمي، وتلك خالتي، وهذا حفيدي شهيد ساحة الحبوبي.

قال لحفيده بتبرة حادة إلّا انها رحومة:

---

١ - يفش: عكس ينتفخ.

– لماذا مررت بساحة الحبوبي؟ كل مرة لا تمر فيها.

إلّا أن حفيده الشهيد لا يخبره السبب، وإنما يتحدث بكلام لا يسمعه الجد.

سأله مرة ثانية:

– هل سيأتي والدك إلينا؟

يهز رأسه نافيا ذلك ويذهب.

دخل عليه طبيب شاب وممرض، وقد أدمن رؤيتهم، وهم يرتدون العدة الطبية كاملة، بدلة بيضاء چفِت، كِمامة، قفازات، نظارة شفافة، راقبا الأجهزة الطبية وكانت تعمل بكفاءة، والكِمامة توصل الأوكسجين، كلمهم إلّا أنهم كانوا أذن من طين وأذن من عجين، تحدثوا فيما بينهم ولم يسمع شيئا من حديثهم.

أتى به ابنه إلى طبيب الصدرية صديقه، وبعد الفحص أرسلهم إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات لأن الأجهزة الفاحصة غير متوفرة في عيادة الطبيب. كان يكذب عليهم، سلمهم ورقة كتب فيها باللغة الانكليزية شيء لم يقرأوه لأنه هو وابنه لا يعرفان تلك اللغة التي يكتب بها الأطباء الدواء، وعندما وصلوا المستشفى قرأ طبيب المستشفى ما مكتوب في الورقة، نادى على جماعته، دخل عليهم اثنان من الممرضين

وهما يرتديان الكِمامات، والقفازات، والنظارات الشفافة، والروب الأزرق، وأخذوه إلى غرفة الإنعاش، وثبتوا الأجهزة هذه عليه. لم يعرف ما حدث لابنه، إلاّ أنه بعد دقائق رأى وهو بين النائم والصاحي[1]، ابنه قد اجتاز الممر من أمام الغرفة، وهو بين ممرضين، ولا يعلم إلى أين ذهب.

اشتد سعاله الجاف كثيرا، وزادت درجة حرارته أكثر من المسموح به، وتوالت حكة بلعومه فشعر بثقل فيه يدفعه للسعال، أصبح كجثة ذابلة لا نفع منها، فيما شعر بأن مثانته قد امتلأت بالبول وتحتاج إلى تفريغ، لم يكن أحد قريبا منه، حتى زوجته الحاجة، وابنه أحمد، قد تخلوا عنه، رموه كحاجة زائدة يريدون التخلص منها، وظلت مثانته تضغط عليه، ثقلت كثيرا، كانت مثل سماء حبلى بالماء وقد اسود وجهها بالغيوم السود،. صرخ بأعلى صوته، فلم يسمع هو صراخه، فكيف بالآخرين، أراد أن يتحرك فلم يقو على الحركة، وبال، عندها فرغت مثانته، فارتاحت نفسه، وكل كيانه، أرتاح كثيرا منها إلّا أن آلام لسانه، وبلعومه، وحرارة جسمه، ودوي الطبل في صدغيه، هو الذي آلمه، وأقلق مضجعه، وأحال جسمه

١ - صاحي: غير نائم.

إلى جثة هامدة سوى ما يسمع فيها من دقات الطبل، وما يشعر به من جريان الدم في عروقه.

لم يطل الرقاد في الغرفة سوى ساعات قليلة بعد أن أظلم الفضاء خارجها، وحتما طلعت النجوم، مخبّئة اسرارها عن الأعين، وبزغ القمر، فقد غار خديه، وتجعدت أكثر، وصغرت عينيه حتى بات لونهما الأزرق كماء البحر أكثر بياضا، ثم انسدت رموشهما وانطبق الواحد على الآخر، غفى ونام.

كان الليل يملأ الفضاء الخارجي، أما هنا فعينيه قد جعلت كل شيء يراه أظلم، أسود كالكحل، فطار في الفضاء الأزرق كالطيور، وحلق عاليا، وما زال تنفسه صعبا، وصدره يعلو ويهبط بسرعة عالية، وشفتاه يبست هي وبلعومه، وراحت درجة حرارته تزداد مثل حرارة سيارة البرازيلي"الفوكس واگـن"، وكسيارة الفولكا الروسية التي أطلق عليها العراقيون اسم "البعيرة"، وكان محركها تزداد درجة حرارته عاليا مما يضطر سائقها إلى إيقافها لتبرد، وهذا يحدث داخل المدينة لكثرة الازدحامات، والتوقفات باستخدام "البريك"[1]. كثير ما صعد هاتين

١ - البريك: الموقف في السيارة أو الدراجة.

السيارتين، وكثير ما توقفتا في الطريق، ومرة توقفت سيارة الفولكا، حمى محركها، نزل السائق، فتح غطاء المحرك، وبسرعة فتح غطاء الراديتر[١]، فإنبثق الماء الساخن كنافورة على وجهه فأحترق الوجه، وأخذه إلى المستشفى، كان الموقف مضحكا مبكيا.

كان الذي جال في خاطره يأخذه إلى أزمان، وأماكن شتى، ويلتقي بشتى الشخصيات، ويرى أحداثا متنوعة. كان عندما يتذكر شيئا ما حدث صباحا، ينقلب عنده الزمان، فيكون عصرا، وعندما يتذكر ابنه أحمد، ينقلب ابنه إلى أمه التي ماتت وذهب بها "جناز"[٢] إلى النجف ليقبرها هناك في مدينة الإمام علي بن ابي طالب لتحشر معه يوم المحشر، وتدخل معه الجنة، كما تقول هي. وعندما يتذكر حفيده الحبيب أنمار فإنه يثبت ولا يتغير:

– كيف حالك؟ سأله.

قال الحفيد بنبرة تحمل من الحب والاحترام أشياء كثيرة:

– أنا بخير، هل تنام جيداً؟

– نعم.

---

١ - الراديتر: المشع في محرك السيارة لتبريده.

٢ - جنّاز: الذي يأخذ الجثمان (الجنازة) إلى القبر، والذي يدفنها يدعى "دفان".

في هذه اللحظة دخلت عليهم وهو في الناصرية وأنمار في بغداد حفيدته نوال، فسألها الجد:

– كيف هو حال أخيك سلام؟

أخبرته قائلة:

– إنه بخير.

– وسليم؟

– إنه بخير.

– هل ذهب إلى المحل مع والده؟

– نعم جدي.

صعدت الشمس إلى قبة السماء، وازدادت حرارة الجو، قال لابنه أحمد:

– خذ معك المظلة لتقيك الشمس.

رد علية أحمد:

– أبي لا تخف، الجو ما زال باردا.

انتبه إلى أن هناك شخصين وهما يقفان قرب رأسه، وشخصين آخرين بالقرب من قدميه، حياهم، طلب منهما أن يجلسا فرفضا، كانا يرتديان

ملابس الشرطة، وبيد كل واحد منهم عصا طويلة، واضبارة ثخينة. كانا يحدقان فيه. سأله أحد الشرطيين الواقفين بالقرب من رأسه:

– أنت الحاج ريحان بن جليل؟

أجابه بسرعة وكان خائفا منهم:

– نعم أنا هو.

صاح شرطي يقف عند قدميه:

– ألم أقل لكم إنه هو.

قال الشرطي الآخر الذي يقف قرب قدميه:

– لنتأكد ليس إلّا.

قال الشرطي الرابع الذي يقف قرب رأسه وقد التمعت عيناه ببريق حاد:

– لم يحن وقته.

سأله أحد الشرطة:

– لماذا يؤجل؟

قال الشرطي الذي تكلم في الأول:

– هو الذي أجله ولست أنا.

سألاه عن كل شيء، وأجاب عن أسئلتهم بشكل مقتضب. كانا يعرفان عنه كل شيء حتى لماذا سمي بريحان، إلّا أن الأوامر كانت صارمة، لا يقتربا منه، لم يحن أجله بعد.

قال ذلك وخرج من الباب، وخرج خلفه جماعته الشرطة، بعد أن فتحوا فمه، وقرأوا درجة حرارة جسمه، وكان الصمت يخيم عليهم. ارتاح الحاج ريحان بما قاله الشرطي.

قالت له الحاجة زوجته:

– هنيئا لك، لم يحن وقتك بعد.

وتعإلى صوت زغاريدها مع ابنة أخيه الشهيد في حرب إيران، كريمة العين، زوجة ابنه.

كانت السماء ترسل مطرها مدرارا، وخيوط المطر تربط السماء السوداء بوحل الأرض. فاضت الشوارع، وتعطلت بعض السيارات التي وصل ماء المطر إلى محركاتها، وكان هو يقطع المسافة بين بيته ومحل ابنه أحمد خلال ثواني معدودة، وجدها خالية، فقد باع كل البضاعة. سأل ابنه أحمد:

– ماذا جلبت من إيران؟

ردّ الابن على والده:

– جلبت لك مسبحة من الفيروز بحجم ١٩[١].

يضحك ويقول لسليم:

– ألم تذهب إلى بيت خالتك في البساتين؟

يرد عليه سليم وقد مسك سعفة قطعت بمنجله من نخلة مثقلة بعثوق للرطب الذهبية:

– كل شيء جميل هنا، خضار في خضار.

قال الجد مسرورا:

– الماء والخضراء والوجه الحسن.

سألته الجدة الحاجة أم أحمد وهي تخض الحليب في مخاضه لتخرج منه اللبن والزبد:

– نعم، هل ناديت عليّ؟

قال الطبيب الذي دخل الغرفة ومعه الممرض:

– لا يمكن إنقاذه، إن الفيروس تمكن منه. رجل كبير السن مثله لم يصمد أمام هذا الفيروس سوى يوم أو يومين بهذا الجسد الضعيف، والمناعة التي تساوي صفرا.

١ فيروز ١٩: هناك تورية في هذا الاسم يشير إلى الفيروس/١٩.

سأل الممرض:

– وهل تعتقد انه سيموت؟

قال الطبيب مؤكدا:

– كل الناس تموت، إلا ان هناك فرق بين ميتة وأخرى.

ثم تابع قوله بعد أن تحدث في محموله مع شخص آخر اتصل به:

– ان مقاومته للفايرسات ضعيفة جدا، نعم سيقضي عليه.

قال الممرض بعد أن هزّ رأسه علامة الموافقة على قول الطبيب:

– سنجعل ميتته رحيمة، سنبقي قنينة الأوكسجين مربوطة بالكِمامة التي لا ننزعها منه حتى يموت.

قال الطبيب شاكرا:

– شكرا لك.

وخرجا من الغرفة. لم يسمع الحاج حديثهم، بل رأى أشباحا تتحرك، في جو ممطر، وكان حفيده سليم هو الذي رآهم يتحركون قرب الطبيب والممرض.

صاح على حفيده وسأله قائلا:

– لم أر القنبلة الدخانية في رأسك، هل نزعتها؟

قال له الحفيد وهو يمسّد على شعر رأسه الطويل باحثا عن مكان القنبلة الدخانية:

– لقد أخرجها الأطباء.

– وهل تألمت؟

– لم أشعر بضربها لي فكيف أشعر بإخراجها من رأسي.

ضاق صدره أكثر من اللازم، حتى شعر أن الحياة ستفارقه للتو، تصور أن صدره سينطبق على نفسه، جهة الأمام على جهة الخلف، أو أن الخلف على الأمام، فينفري القلب، والرئتين[1]، وينتهي كل شيء. كان صدره لا يقبل أن يسترد أنفاسه الاعتيادية مثل باقي الخلق. بدت ملامحه تتغير نحو الأسوأ. كان وجهه قد أصفر كليمونة مضغوطة فأصبح أزرقا ككفاز الأطباء والممرضين. دخل غرفة الإنعاش أزرق العينين وها هما قد تحول لونهما إلى الأبيض المائل إلى السواد. وكانت شفتاه بلون بنفسجي داكن فأصبحت بيضاء، ومتيبسة، ومقشّرة، لجفاف فمه. وكان قد تهدّل خداه على جانبي وجهه نحو الأسفل، لكبر سنه، وقد امتصا كليا كما تمتص ليمونة من سائلها الحامض. هدأ سعاله، تلاشى

١ - ينفري القلب والرئتين: يفري يشقه ويقطعه، وعند العامة بمعنى ينفجر.

كليا. توالت دقائق على هذه الحالة قبل أن يبدأ تنفسه يبطيء شيئا فشيئا. كان كل شيء فيه منطفئ. أخذت أضوية جهاز مراقبة بارومترات القلب تبطئ في حركة اضاءتها، فيما خطوط الذبذبات للقلب أخذت سرعتها تتغير نحو البطيء. كان ما يمر أمامه من منظر جميل لحديقة واسعة وطرية، وفيها طيور ملونة، وحيوانات أليفة تلعب فيما بينها، رأى حفيده سليم، ووالده ووالدته، وأخيه، وبعض المعارف والأصدقاء، فيها، رآهم بثياب بيض وهم يبتسمون له. قال سليم ممازحا جده القادم إليهم:

– جدي هذا والدك ووالدتك يسألون عنك.

رحب به والده ووالدته وتمنّوا له راحة البال والعيش الرغيد. صاح أخوه به قائلا:

– أخي كيف تركت أهل الدنيا، وما أخبار أبنتي؟ أخبرني كل شيء عنها، أنا أعرف إن عينها اليسرى قد أدخل فيها أبنك إبرة سرنجة فسقط كل ما فيها من سائل، فماذا حل بها؟

قال للجميع بعد أن جلس على الأرض المعشوشبة الخضراء واللّينة:

– اشتقت لكم جميعا وها أنا أزوركم على أرضكم، فأهلا ومرحبا بكم. أخي أما أبنتك فقد تزوجها ابني أحمد، وأنجبت أنمار وسليم ونوال وسلام، وها هو سليم معك بالقرب منك.

هرع الطبيب والممرض إلى الحاج ريحان، وجدوه جثة هامدة، لا نبض فيها، ولا حركة في صدره، وقد برد جسمه. نظر الواحد إلى الآخر، سلّم الممرض جهاز صدمات القلب الكهربائي إلى الطبيب، قام بالاجراء اللازم أكثر من مرة دون فائدة. كان كمن ينفخ بقربة مثقوبة. كانت شفتيه ترسل ابتسامة خفيفة من تحت ماسك الأوكسجين. رفعت الجثة يدها إلى الأعلى وأنزلتها بهدوء نمّ عن أخلاق، وقيم نبيلة يتحلى بها الحاج. وكان كمن يشكرهم على ما قاموا به، ويودعهم الوداع الأخير.

***

الفصل/٦

كالطائر الذي تطلقه، وتهبه الحرية، وتفتح له باب قفصه المسجون فيه، إلّا أنه يظل في القفص ولا يرغب في التحرر. كان أبو غائب مثل هذا الطائر، كأي شخص يختار العزلة ولكن بشكل بدائي، وبقناعة تامة. صحيح أن العزلة، شيء ممل وقاتل، ومتلفة للروح والجسد، لهذا يحاول الإنسان الدخول في الزحمة، زحمة الناس، والعمل، هكذا يشعر الناس الأسوياء. أما بالنسبة لمن له غاية وهدف فهو يستسيغها ويود ديمومتها واستمرارها أكثر مما يجب. فأبو غائب كان يريدها، ويرغب فيها، وما فتح دكانه إلّا لأجل أن يكون وحيدا، ومنعزلا، وأقسَم بأغلظ الإيمان[١] أنه لن يتزوج أبدا، بعد أن استساغت له علاقاته النسائية، والغلمانية على السواء. وعندما اشتهر بها بين الناس في الناحية التي كان يسكن فيها، انتقل منها وجاء إلى المدينة واختار هذا الدكان ليكون له مصدرا للرزق، ومكان للمنام، والطبخ، ومطعم، كذلك. والتوحد هو من مظاهر هذه

١ - أغلظ الايمان: أعظم القسم، الحلف.

العزلة. فعندما لا تكون عائلة لك تحن اليها وتحن لك، أم وأب، وأخ وأخت، أو زوجة، وأطفال، فهذا أمر يحدث دائما للناس، وقد يعالجوه في تكوين عائلة، وكان أبو غائب، وهو اسم غلب على اسمه الأصلي الذي لم يعرف به، وقد أطلقه أهل الحي الذي نزل بينهم بين ليلة وضحاها عليه، لعدم معرفتهم باسمه الأصلي، كان هذا الشخص ممن لا عائلة عنده، جاء إلى الحي بلا عائلة، أو ما يسمى "زگـرتي"[1]، أجّر هذا الدكان وأصبح له محلا للبيع، ودارا للسكن، وظل فيه أكثر من خمس سنوات بلا عائلة أو قريب يزوره، إذ ولا مرة افتقده أو زاره أحد من قريب أو بعيد، كان كالنبت الطبيعي لا يعرف من أين أتى، وكيف نبت. كان بعمر الخامسة والأربعين. فارع الطول. نحيفا حد الخوف عليه من الانقطاع كخيط رفيع بال. أملس الوجه، لا لحية له ولا شارب. وقد صفف شعره كأي شاب مراهق إلى الخلف، ووضع عليه بعض الدهونات الملمّعة والمصففة للشعر. كان ينام، ويطبخ، ويأكل فيه، ويتبول في قعر صفيحة صغيرة وفارغة لحليب نيدو ويرميه في بالوعة الشارع. وعندما يريد أن يتغوط يذهب إلى الجامع القريب من دكانه. ولا تعلم عوائل

١ - زگرتي: الرجل الذي يعيش لوحده، وغير متزوج.

المنطقة عن أصل هذا الرجل سوى أنه كانت لديه عائلة ماتوا جميعا بحادث سيارة على طريق ناصرية النجف. وظهرت هذه الحكاية غير صحيحة، وقد حاكها هو لكي يحترمه الناس. وكان دائما تأتيه نساء، أو صبيان يقضون الليل معه في الغرفة الخلفية الصغيرة، ويتخلص منهم فجر اليوم الثاني. كان في هذا السلوك يطفو بين أبناء المحلة ولا أحد يعرف به.

لم يعرف تاريخا للرجل، وفي أي مكان عاش قبل أن يأتي ويؤجر الغرفة المتهالكة ويقوم بترميمها، ويفتح بابا لها كدكان يعتاش من ورائه. مرة أعطاه المختار، أبو رزاق، ورقة ليملأها معلومات عنه ليوثقها في سجله، كتب أن عمره خمس وأربعون سنة. وكان يسكن ناحية الطار. ويعمل صيادا. وخدم العسكرية. ولم يتزوج. وكتابته لهذه الحالة الاجتماعية عن زواجه تكذيب لما حاكه والآخرون من قصة عن انقلاب سيارة بعائلته وموتهم، وهذا ما كان يعرفه المختار من دون أهل الحي، فقد بقيت حكاية موت عائلته هي المتداولة بين الأهالي. كان يعيش لوحده.

كان يزوره بين الحين والآخر رجل أربعيني، من معارفه وقت أن كان صيادا في منطقته، وقد تعرف عليه قبل أكثر من خمسة عشر عاما، في

الهور عندما كان صيادا، وفي اليوم الثاني طلب منه أن يكونوا أصدقاء، فنظر اليه أبو غائب، وقال:

– الناس تلتقي دائما، ويبقى المهم في ذلك اللقاء هو ما يخلّفه، أو ماذا ينتج.

وقد نتج عن هذا اللقاء صداقة، دامت خمس عشرة سنة، وقد علمه أبو غائب كيفية التعرف على رائحة المرأة التي ترغب فيه في فراشه، أو نظرة الصبي الذي ينزع ملابسه أمامه، فأنتقل معه إلى المدينة، وافتتح له دكانا صغيرا مثل صاحبه في الجانب الثاني من المدينة. وكان يزوره في الدكان لبعض الوقت ويغادر. كان الحديث منصبا عن الغلمان والنساء، وكان أكثره يأتي بشكل فكاهي، وتندر. سأله مرة، بعد أن مسّد شاربيه اللاتي كأنهما مقود دراجته الهوائية التي جاء وهو راكبها:

– هل عرفت امرأة أو صبيا من المنطقة؟

رد عليه بعد أن مطّ شفته السفلى:

– لا، أنا لا أقيم علاقات مع نساء وصبايا المنطقة، يكفيني ما يأتي من خارجها فهو أكثر أمانا وأفضل. أريد أن أرتاح من ضيم الوحدة ولا أريد مشاكل مثلما كنا في ناحية الطار.

قال صاحبه بعد أن حرّك عجيزته على كرسيه البلاستك الأحمر:

– في المرة السابقة رأيت صبيا خرج من المحل ودخل الزقاق فحسبتك تعرفت عليه.

حرك رأسه وابتسم، قال:

– لا. هذا ابن جارنا المفوض وهو من المنطقة وأخشى أن يخبر والده المفوض بالأمر.

ومرة، وعند ظهر يوم تموزي حار، والناس في بيوتهم يأخذون القيلولة، دخل صاحبه برفقة امرأة تضع على وجهها "بوشية"[1]. كان نصف وجهها محروقا. وبقيا أكثر من ساعتين، وقد شرعا بالعمل مباشرة بعد وصول صاحبه والمرأة. إذ دخل أبو غائب معها إلى الغرفة الداخلية وظلا بعض الوقت وخرجا. وبعد استراحة عشر دقائق دخل معها صاحبه. وهكذا يتناوبان على النوم معها. بعدها دفعوا لها الثمن الذي اتفقوا عليه وغادرتهم عندما تأكد أبو غائب من خلو الشارع من أي مخلوق.

وحكاياته مع النساء لم تكن معروفة لأهل المنطقة، إلّا أنه وفي مرة خرج أبو أنمار من داره في الساعة الخامسة من فجر يوم من أيام

١ - بوشية: غطاء للوجه من نسيج خاص، خفيف أسود اللون تلبسه المرأة مع "الشيلة".

خروجه للعمل. كان يريد الذهاب إلى محله. وكان الليل بدأ ينقشع تحت وضح النهار، وبدأت خيوطه البيض تغلب الخيوط السود. رأى صبيا حليق شعر الرأس، أبيض البشرة، جميل إلى حد ما، يلبس دشداشة ذات لون سمائي، وينتعل نعالا مصنوع من الإسفنج، يخرج من المحل، وهو يتلفت يمينا وشمالا، وقد وقف أبو غائب عند باب المحل ينظر إلى المارة في الشارع الفرعي الذي يقع عليه دكانه، وكان خاليا، وعندما لمح أبي أنمار يخرج من الزقاق الذي يقع عليه داره، عاد سريعا ودخل الدكان، فيما استمر الصبي بالسير حتى استدار إلى الشارع الآخر، وأخذ أبو غائب يمسح بعض أغراضه بقطعة قماش معدة لذلك. أخذ هذا المشهد شيئا من تفكير أحمد، وهو يمشي نحو محله التجاري الذي في الشارع الثاني ولا يبعد عن داره سوى عكسة[1] واحدة. تساءل مع نفسه وقد وقر في ذهنه ما رأى: ماذا يفعل مثل هذا الصبي الغريب عن صبيان المحلة في هذه الساعة في محل أبي غائب؟ وشغل تفكيره هذا الأمر كثيرا. وفي زحمة عمله في محله التجاري، وازدياد الزبائن، نسي ذلك الأمر، أو تناساه.

١ - عكْسه: استدارة الشارع.

كان محل أبو غائب كأي محل صغير في منطقة سكنية قديمة تدعى "منطقة السراي"، يضم ما يحتاجه البيت من مواد غذائية، كالمعجون، والعدس. وما يرغب به الأطفال من حلويات أو سكاكر، كالجكليت، والحامض حلو. وما يريده الكبار من لوازم وأشياء يحتاجونها سريعا، كموس الحلاقة. وكانت علاقته لا تشوبها شائبة مع الجيران، نساء، ورجالا، وأطفال. كان كل أبناء المحلة يرتاح لتعامله معهم، بل كان يشاركهم في أفراحهم وأتراحم. وكان دفتر الديون على عوائل المنطقة ملآن حد التخمة، وهم يسددون ما بذمتهم كلما استلموا الراتب، لمن عنده راتب. أو عندما يحصلوا على مبلغ من تجارة، أو بيع، أو شراء. كان الاثنان مرتاحين لبعضهم في تعاملاتهم.

وفي يوم عاد جبار المفوض الذي يسكن في زقاق الحاج في ساعة متأخرة من الليل من المركز بملابسه العسكرية، وأثناء دخوله في شارعهم الفرعي رأى شيئا يشبه العباءة النسائية قد دلفت إلى الدكان. لم يرَ شيئا منها، بل كل الذي لمحه من بعيد هو لمّة ردفيها الكبيرين والملفوفين بالعباءة وهما يدخلان باب الدكان. رنّت صلصلة الشيطان في أذنيه، إذ أثاره هذا المنظر، ورغب كثيرا فيه، وحنَّ إلى أيام الصبا والشباب، إلّا أنه أبعد عن فكرة التأثير بهذين الردفين. تباطأ في المشي حتى وصل إلى

الدكان فرآه مغلق الباب من الداخل كما يفعل كل مرة. إندهش كثيرا، استغفر ربه، تساءل: هل الذي رآه حقيقي؟ أم أن ذلك من تخيلاته، لتعبه من الواجب الذي كان فيه؟ لم يسكت، بل أنه بات على أمل أن يخبر أحمد بالقصة. وفي اليوم الثاني ذهب إلى محل أبو أنمار، وهناك أخبره بكل هواجسه عن أبي غائب. قال له أبو أنمار:

– لم نرَ من الرجل إلّا كل الخير. وإذا كان ما تقوله صحيحا فعلينا ستر هذا الأمر حتى نتأكد من ذلك.

سأله المفوض بإمتعاض:

– وكيف نتأكد يا أبا أنمار؟

رد عليه بعد أن أمر ابنه إلى أن يحمل استكان الشاي الفارغ من أمام المفوض، وأن يأتي بآخر حار. رفض المفوض أن يشرب أي إستكان شاي بحجة أن ذلك يعمل له حموضة في المعدة:

– نتأكد بعد أن نمسكه مسك اليد.

لم يدخل أبو أنمار دكان أبو غائب منذ فترة طويلة. وذات يوم كان قد عاد من محله في وقت الظهر ورأى صبيا يدخل الدكان، فرح أبو أنمار. أسرع في سيره قبل أن يقفل أبو غائب الدكان. وصل إليه، وجده مشرع الأبواب والصبي هو ابن جارهم المفوض، وبيده علبة معجون، وهو على

وشك الانصراف، تلكأ كثيرا، سلم على أبي غائب، واشترى دزينة موسى وانصرف.

كان دكانه خاليا من الأثاث، فيه فسحة صغيرة في الخلف عملها غرفة له، فوضع جدارا خشبيا يفصلها عن باقي الدكان، ووضع لها بابا خشبيا. وفي داخل الغرفة الصغيرة سرير حديدي، وكرسي، ومنضدة، وطباخ نفطي بعين[١] واحدة، وثلاجة صغيره، وشمعة[٢] لتعليق ملابسه عليها، هذا كل ما يملك من أثاث قد اشتراه عندما فتح له هذا الدكان الذي كان في الأصل غرفة استقبال في بيت مهجور من أهله، وقد سقط الكثير من جدرانه، وبعض سقوف غرفه، في غرفته الداخلية هذه كان يطبخ أكله، ويأكل، ويستحم، ويغسل ملابسه، ويضاجع من يدخل معه من النساء والصبيان، وكان دائما يردد مع نفسه: إن الخصيان لا يدخلون الجنة، ويضحك ملء فيه.

ظل أبو غائب لوحده في الليل لفترة طويلة، إذ توقف من استقبال النساء أو الصبيان في الغرفة الخلفية بعد الساعة الثانية عشر ليلا بسبب شكه بأبي أنمار بعد أن رآه، وقد أخبر صاحبه الرجل الأربعيني بذلك،

١ - عين الطباخ: العين هو تسمية عامية للمشعل الذي في الطباخ.

٢ - شمعة: من ضمن آثاث الغرفة لتعليق الملابس عليها، وليست الشمعة التي تضيء.

وطلب منه أن ينقلا استقبال النساء والصبيان في محله، فإعتذر منه كون محله لا غرفة خلفية له، فصرف عنه فكره هذا الحل. وكان أن شعر أكثر من مرة بالكبت المكتوم وهو مجبر على ذلك، وقد اعترف مع نفسه، وحاول العودة لياليه الحمراء، إلّا أنه في كل مرة يقول سأخبر الصبي فلان فإنه يصرف ذلك الأمر عن تفكيره، ويقول لنفسه: ليس الآن، ولا في الغد، بعد شهر على الأقل، حتى حجروا على الحاج ريحان وعائلته، وعائلة أبو نجلاء، فخشي من تلك الزيارة، لأن أبو أنمار زاره في الدكان، وقد سلم عليه وربما نقل له الوباء.

في فجر اليوم الثاني من رقاد عائلة الحاج ريحان، وعائلة نجلاء في المستشفى، وقد ازداد عدد المشكوك بإصابتهم بالوباء، كان جبار المفوض خارجا من بيته للذهاب إلى مكان عمله فرأى الدكان مغلقا، وعند عودته من عمله بعد الساعة الثالثة ما بعد الظهر، رآه كما في الفجر، مسدود من الداخل وكأنه ظل هكذا دون أن يفتح، عندها شك في الأمر، وقال في نفسه: ربما هناك شيئ ما بعد حجر العائلتين في المستشفى، فحاول أن يرفع "كبنك"[1] الباب فلم يستطع. هرع إلى بيت

١ - كبنك: باب المحل المصنوع من الواح حديدية والذي ينضم ويلتف على نفسه لكي يغلق ويفتح.

المختار الذي يقع في الشارع الثاني وحدّثه عما رآه. عادا سوية. وكسرا الباب، ودخلا، فوجدا أبي غائب يئنّ. قال المفوض:

– ربما يئن من درجة حرارة جسمه العالية.

رد المختار:

– ربما هو مصاب بفيروس كورونا.

هز رأسه موافقا وهو يقول:

– الظاهر إنه قد أصيب.

عندها خرجا ولم يلمسا شيئا. وتلفنا إلى المفرزة الطبية التي أتت واصطحبته إلى المستشفى. عقم وعفر دكانه. ظهرت نتائج الفحص، موجبة "Positive". إنه مصاب بفيروس كوفيد/١٩. لقد امتد الوباء وانتشر مثل سرطان لا يمكن السيطرة عليه. وحتى خلية الأزمة للعراق قامت تعطي أعداد ، وحالات الوفاة في كل محافظة.

تابع المختار حديثه الذي بدأه:

– تعرف عزيزي أنه إلى الآن لم يوجد علاج خاص لهذا الوباء، في العالم، إنهم يكتفون بوضع المصاب على جهاز التنفس الاصطناعي ويحجرونه لمدة أربعة عشر يوما.

رد عليه المفوض بالقول:

– يكون الله في عون المصابين، إن الحمى العالية تقضي على الحيوان فكيف بالإنسان، والفيروس ينزل إلى الرئتين ويسكن فيهما، إنه كائن غير حي، وعندما يجد الخلية الحية في الرئتين يتكاثر ويسد المجاري الهوائية فيموت الإنسان إذا لم يكن يساعده جهاز التنفس الاصطناعي، كما أخبرني أخي الممرض.

قال المختار للمفوض الذي طال شاربه فكانت أطرافه معقوفة للأعلى، وكان دائما يلفها ويرفعها إلى الأعلى:

– لقد تعبت المدينة كثيرا، فيما كانت تبكي شهداءها على جسر الزيتون، وشهداء ساحة الحبوبي، هجم عليها هذا الوباء وكأنه كان مختبئا لهذا اليوم الذي وجد فيه الثائرين بعض مطالبهم تنفذ، وإن الشهداء ما زالت دماءهم تفور.

تجاوز المفوض كلام المختار وقال له وهو يحدثه عن تعب مفارز خلية الأزمة:

– لقد أدّت مفرزة الدفاع المدني دورا كبيرا في تعقيم وتعفير كل الدور والمحلات التي يحجر أهلها في المستشفى، مع تعقيم وتعفير خيم المتظاهرين في ساحة الحبوبي، وفي الوقت نفسه يمكن الحكم على المفرزة المشتركة من رجال الصحة ورجال الأمن، هؤلاء الذين قدموا

جهودا في درء فيروس كوفيد/١٩، فقاموا بفعل بطولي. لقد بينت هذه الأزمة معدن الرجال، فبان ذلك المعدن الأصلي، والصلب، والواثق من نفسه، كانت هذه الجهات الثلاثة، الصحة، وقوات الأمن، والدفاع المدني، قد أبلوا بلاء حسنا لمواطنيهم فكانوا أهلا لكل تمجيد واحترام، لأنهم كانوا في مركز الأزمة، وحومة الوباء، وهم يخاطرون بحياتهم من أجل حماية حياة المواطنين، وهم لا يريدون جزاء ولا شكورا من أحد.

قال المفوض:

– لقد تعب الأطباء والممرضون، والشرطة، ومنتسبو الدفاع المدني، لقد تعبهم كورونا هذه.

رد المختار عليه قائلا:

– الله يحفظهم من كل مكروه، ويسلمهم من هذا الوباء، لقد اشتد على الأهالي، سوف يأخذنا معه، الله الحافظ.

قال المفوض قبل أن يدخل الشارع الذي يقع فيه داره:

– ما هي أخبار ابنك؟

رد المختار:

– أطلقوا سراحه، هو لم يقتل، ولم يسرق، ولم ينهب مثل الأحزاب، طالب في الكلية وخرج مع زملائه في التظاهرات، هل هذا ممنوع؟

وافقه المفوض على رأيه بهزة من رأسه. وساد سكون بينهم، وقبل أن يتحرك المفوض ليدخل الشارع الذي يقع عليه بيتهم، سأله المختار:

– ما هي أخبار عائلة الحاج ريحان، وعائلة أبو دلال؟

وقبل أن يسلم عليه، ويودعه، أجابه قائلا:

– إنهم في الحجر، والحاج ريحان وابنه في حالة خطرة.

دخل المفوض في الشارع الذي يقع عليه داره، وهو ما زال بملابسه العسكرية، ولم يصل إلى أهله حتى، وغاب فيه، فيما راح المختار إلى داره.

***

الفصل/٧

الأمثال الشعبية هي حكمة العامة من الناس، والمثل الشعبي يقال بعد تجارب عديدة في الحياة عن أمر ما يحدث لها، وكثير من الأمثال هي من هذا النوع والتي تشرح وتصف أمر ما قد جرى على الناس. وإذا كان البعض يرى بعين واحدة، فإن خلية الأزمة ترى بعينين، وهي "مفتشة باللبن"[١]، وترى أن الوباء قد ازداد، والفيروس قد تمكن من العراق، وقالت أكثر من مرة: سدوا الحدود، والمطارات، إلّا إن أذان الحكومة من طين والأخرى من عجين[٢]، وهكذا تمدد الوباء مثل سرطان ضخم لا يمكن السيطرة عليه، فلم تعد تفيد فيه الأدعية، والحروزة[٣]، وما أكثر المدّعين، وأنواع وتعدد ما يكتبون من طلاسم، ويرسمون من مربعات ومثلثات تُملأ بحروف عربية وأعجمية، فابتليت بهم هذه الحروف. ولا زيارة مراقد الأولياء والصالحين بالتي تعود على صاحبها الزائر بالخير

١ - مفتشه باللبن: تعبير عراقي معناه انها تعرف كل شيء.

٢ - أذان من طين وأخرى من عجين: تعبير يعني ان الشخص لا يسمع، أو انه بحكم من لا يسمع.

٣ - الحروزة: جمع حرز، وهو التعويذة.

والصحة والعافية بعد تعفير وتعقيم تلك المراقد. ولا طبول انشودة "يا حوته يا منحوته هدّي قمرنا الغالي"[1] تعود بالفائدة على منشديها. ولا البخور، وصاحبات السحر، وأصحاب التعاويذ، كل ذلك لا يفيد. حتى الشيطان نفسه، ملّت أكثر الناس من ذلك، وراحت تنصت جيدا إلى تعليمات خلية الأزمة، وما يقوله العلم، أما الذين ظلوا في غيهم يعمهون، فإن كل الذي قلناه لا يفيدهم بشيء.

وإذا كان الوباء قد طال أهل المدينة، وغرز أنيابه في لحمهم، فقد كان البعض منهم هم المسببون لذلك، إذ نقلوا الفيروس من مكان إلى آخر، ومن بلد إلى آخر، وكان أول من نقل هذا الفيروس إلى المدينة هو أحمد الذي أصيب به، وأصاب والده، وقد كان أكثر أريحية عندما تقبّل هو وعائلته بالحجر الصحي، وكذلك تقبّل بحزن فقدان رب العائلة، إلّا أن هناك بعض الناس يهربون من مسؤولية نقل هذا الفابروس، مثل شرّاد الإنسان القروي الذي نقله من تلك الدولة المجاورة التي نقل أحمد منها الفيروس نفسه إلى أبناء المدينة، إلى أهل قريته، فلم تسلم القرية

١ - "يا حوته يا منحوته هدي قمرنا الغالي، أو "العالي":هي انشودة ينشدها الأطفال عند خسوف القمر.

كالمدينة التي أصابها الوباء، وكان الناقلون في المدينة هم أحمد ابن الحاج ريحان، وشرّاد في القرية والريف.

وفي هذا اليوم من أيام شهور فصل الشتاء التي ينزل فيها المطر في المدينة على شكل موجات بعيدة بين الواحدة والأخرى زمن بعيد مثل ناقوط الحب [1]، في هذا اليوم، عاد شرّاد، المواطن القروي، من تلك الدولة مشيا على الأقدام كي لا يخضع لفحص المفرزة الصحية الموجودة في مدخل المدينة، لا لمعرفته بأنه مصاب بالوباء وإنما لانقطاع وسائل النقل بين المدن، ولسرعة الوصول إلى بيته لأن المفرزة سترسله إلى المستشفى لحجره فيه. وصل إلى منطقته الريفية شمال المدينة أثناء الليل، وكانت الدور التي تقع على الطريق الترابي والوحيد الذي يفصل القرية إلى قسمين تنام هادئة، وفوقها السماء خالية من النجوم، وقد غابت مع أسرارها، سوداء كشيلة أمه، وعواء الكلاب يتردد صداه في أطراف القرية، وعندما وصل إلى داره طرق الباب مثل رجل مطارد، وهو كذلك، فتحت زوجته باب الدار، فدخل بسرعة بعد أن تبادلا التحية هو وزوجته، ونام في فراشه بعد أن رفض استيقاظ أبنائه ليسلم عليهم.

١ - ناقوط الحِب: الحب هو اناء فخاري كبير يوضع فيه الماء ليبرد وتنزل منه قطرات الماء تسمى الناقوط، أي التي تنقّط.

كانت القرية تنهض صباحا مع "طگـة البريج"[١]، ويصل رجالها إلى مضيف الشيخ بعد الانتهاء من صلاة الفجر لمن يصلي، فيجدوا أن "الـگـهوچي"[٢] قد سبقهم إلى المضيف وهو يصنع القهوة، وفي وقت متأخر من ذلك الصباح، وبعد أن سلّم شرّاد على أبنائه، ووزع عليهم الهدايا وفيها "علگ"[٣]، وتناول فطوره المتكون من بيضتين مسلوقتين، واستكان شاي، خرج ميمما صوب مضيف القرية، إذ لم يكن يفكر بالمرض، ولا بالعدوى، أو الإصابة، لأنه لم يكن يشعر بأي شيء، فما زال قويا ويستطيع أن يهزم العشرات. وجد في المضيف إبناء القرية متجمعين وهم يسمعون إلى مواعظ الملّا عن المرض، وقد وضع عمامته على فخذيه، وهذّب لحيته، وقطب شاربيه، وحفّ[٤] وجهه، فبدت صلعته الكبيرة تشع تحت ضوء النهار الذي يتسلل إلى المضيف من خصاصات القصب والبواري المبني منها. قال:

– يقول الله في القرآن "أدعوني استجب لكم"، وقال كذلك: "وإذا مرضت فهو يشفين"، فالله هو الشافي ولا يهمنا أي شيء بعد هذا القول.

١ - طگة البريج: طگة:طقة، ضربة. البريج: الابريق.

٢ - الگهوچي: الذي يوزع القهوة في المضيف.

٣ - علوگ: المفرد:علگ، وهو قطعة قماش خضراء توزع على زائري اضرحة الائمة وفيها البركة كما يظن عامة الناس.

٤ - حفّ: أزالة شعر الوجه بواسطة الخيط.

وعندما لم يسمع أي كلمة من الجالسين تابع قوله:

– وقد جاء في الكافي: (عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن محبوب عن النضر بن قرواش الجمال، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجمال يكون بها الجرب أعزلها من إبلي مخافة أن يعديها جربها، والدابة ربما صفرت لها حتى تشرب الماء؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، إني أصيب الشاة والبقرة والناقة بالثمن اليسير وبها جرب، فأكره شراءها مخافة أن يعدي ذلك الجرب إبلي وغنمي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله :يا أعرابي فمن أعدى الأول؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا شؤم، ولا صفر، ولا رضاع بعد فصال، ولا تعرب بعد هجرة، ولا صمت يوما إلى الليل، ولا طلاق قبل نكاح، ولا عتق قبل ملك، ولا تم بعد إدراك)[1]. عندما انتهي من قوله لبس عمامته، رتبها جيدا على رأسه، ثم قام وقال للحضور:

– لنصلي لله ركعتين لكي يجنبنا المرض.

١ - روضة الكافي: ١٩٦ .

قام الجميع، الذي يصلي والذي لم يقرب الصلاة، وكذلك الصبيان الذين رافقوا آباءهم في المجيء إلى المضيف، نفضوا ملابسهم، ورتبوا صفوفهم للصلاة، وكان الشيخ ووجهاء العشيرة في المقدمة، وأصبح شرّاد الذي قدم من تلك الدولة، في المؤخرة، أو هكذا وجد نفسه، وراحوا يصلون صلاة الشفاء كما قال لهم الملّا.

كان الوباء قد تمكن من أهل المدينة، وكانت الفرق الصحية تقوم بعملها ليل نهار، وكان رحيم الممرض في مستوصف القرية، والذي يضع كِمامة على أنفه وفمه، ويرتدي القفازات الزرق، لم يمد يده ليسلّم على شرّاد عند دخوله المضيف، قال للملّا بعد أنهوا صلاتهم وعادوا إلى مجلسهم على السجادات الملونة والمفروشة بإنتظام، وقد وزعت عليهم فناجين[١] القهوة:

– شيخنا ونعم بالله ونبيه والأئمة، الذي ذكرته شيخنا على أنه حديث للإمام فهو حديث موضوع ومكذوب عليه، علينا أن نتجنب هذا المرض كي لا تسري عدواه لنا، علينا أن نتوقاه بشتى الطرق، مثل الغسل بالصابون دائما، ووضع الكِمامات على أنوفنا وأفواهنا، ولبس القفازات،

١ - فناجين: مفردها فنجان، وهو القدح الذي تشرب به القهوة.

وعلينا أن لا نلامس أي شخص جاء من دولة موبوءة بالمرض. وكان يقصد بكلامه هذا شرّاد قبل أن يراجع المستشفى.

فصاح شرّاد من مكانه قائلا:

– أتعني بكلامك أنني مصاب بالمرض؟

ردّ عليه بحزم وثقة بانت بنبرة حديثة:

– كان عليك أن تذهب إلى المستشفى لكي تخضع للفحص.

قال شرّاد باستهجان:

– وماذا أفحص؟ أنا غير مصاب، وأنا أصلي وأصوم، والملّا يشهد بذلك.

رد الموظف الصحي، رحيم ضاحكا:

– ونعم بالله، وأنا أشهد لك بذلك، أنت تصلي وتصوم، وهل هذا يكفي أمام هذا المرض؟ المرض شيء دنيوي، يصيب الإنسان الذي يصلي، والذي لا يصلي، فكيف بالحيوان والنبات اللذين لا يصليان، ولا يصومان؟ وكان عليك أن تراجع المستشفى ليتأكدوا من عدم اصابتك بهذا المرض.

تكلم الملّا دفاعا عن شرّاد قائلا:

– إن الحديث مذكور في كتاب "الكافي" ويمكن أن ترجع له لتتأكد منه ابني رحيم ألا تعرف أن الله قال في كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم "وإذا مرضت فهو يشفين" فالله هو الشافي، ولا تدع صاحبك يقلق على صحته. وعند هذا الحد من الحديث قام الشيخ، وقام من بعده الناس وقد تفرقوا إلى أعمالهم.

خرج شرّاد وذهب إلى بيت والده، وهناك أعطاهم الهدايا التي جلبها من زيارته لتلك الدولة، ثم عاد إلى بيته، وفي طريق العودة التقى بمجموعة من الأصدقاء، وتبادل معهم التحية، فيما ذهب رحيم إلى المستشفى وأخبر مديره بوصول شرّاد من تلك الدولة وعليه أن يخضع للفحص هو وبقية أبناء القرية، لأن شرّاد اختلط بأهلها.

حضرت المفرزة الطبية، والأمنية، وسيارات رجال الدفاع المدني، وهم مهيؤن صحيا لفحص قرية شرّاد، أحاطوا ببيوت القرية، وحاول شرّاد أن لا يخرج من داره، إلّا أن المفرزة الطبية جاءت مباشرة إلى داره، وحجرت عليه، وحجرت أهل القرية في دورهم، أيضا، ولم تترك لهم حرية الخروج من دورهم، وقد أخضعتهم للفحص، وظهر أن شراد مصاب بهذا الفيروس. وبدأ فحص أبناء القرية، فوجدت المفرزة الطبية أن أغلب أهلها قد أصيب بهذا الفيروس، ومن ضمنهم الشيخ، والملّا. اعتبرت المنطقة

موبوءة بالفيروس. فيما عزلوا كل الذين لم تصل لهم العدوى، خارج القرية، حيث وضعت لهم "كرفأنات"، وعفروا وعقموا منازل القرية.

كان الشيخ الذي يصدّق بما يقوله الملّا، والملّا، قد انتقلت لهم العدوى من شرّاد فماتوا في اليوم الرابع، إذ توفي الشيخ الذي نزل شرّاد على يديه وقبلهما عدة قُبل. ومات الملّا الذي سلم على شرّاد واستقبله بالأحضان. ومات زاير كاظم ذو الثمانين عاما. ومات بعض كبار السن. ولم يكن المتوفين الوحيدين بهذا الفيروس، بل سبقهم الكثير من الناس، وقد شفي من تم حجرهم، كما شفي الكثير من الناس في المحافظة، أو في العراق. وظل شرّاد الذي شفيّ من المرض يلوم نفسه على ما قام به من فعل ولم يصدق قول رحيم، فيما صدّق قول الملّا. كما لام أحمد نفسه على نقل الفيروس إلى والده، وموت والده من جراء ذلك، لأنه كان كبير السن.

لم تكن هذه الحالة الأولى التي تحصل لقرى خارج المدينة، وإنما أصبحت ظاهرة تفشي الوباء هي المسيطرة في المدينة حالها حال مدن العراق، إلّا أنها أقل من المدن الأخرى في عدد المصابين، وعدد المتوفين، وكثرة في عدد المتشافين. لقد وصل الوباء في المدينة إلى مستوى الذروة بسبب حلول شهر رمضان، الشهر الذي بنت عليه خلية الأزمة آمالها في عدم تجول المواطنين، إذ فكروا أنهم سيظلون في البيت

نياما ولا ينهضون إلّا وقت الإفطار، وبعد هذا الوقت يكون قد حل ميعاد الحظر. إن آمال أعضاء خلية الأزمة قد باءت بالفشل. كان الناس يخرجون في النهار أكثر من باقي الأيام، وتجمّعهم في الأسواق والمولات أكثر منه في الأيام العادية، فكانت أن رفعت نسب الإصابة بهذا الفيروس. وكان هذا ما ناقشه أنمار مع صديقه واثق من بغداد بالمحمول، الذي أخبره بموت استاذ الرياضيات المتمرس ألياس بالوباء.

قال له أنمار:

– هذا البروفسور رجل كبير في السن، وهو دائما يلهث كالكلب بسبب مرض الربو. كان يحب العلم، والعلماء، ويقول العلم هو الإله، ومن أصحاب دوكنز خاصة في كتابه "وهم الإله"، وقد التقى به، وناقشه، وقد شاهدت ذات يوم في حقيبته اليدوية كتاب دوكنز "وهم الإله" باللغة الانگـليزية. كان يقول يجب أن تتوحد الإنسانية في قبول إله واحد وهو العلم، والعلم ليس فيه مغيّب، وغيب، واحد زائد واحد يساوي أثنين.

قال واثق حزينا:

– كان مسيحيا ممن لا يؤمن بالأديان، ويسمى بعرف أصحاب الأديان كافرا، لأنه لا يؤمن بها، ولا بالله. كان إنسانا طيبا، وخلوقا، وكبير القلب، وسمحا. كان يقول الأرض واحدة، والشمس واحدة، فلماذا يتعارك

الأشقاء؟ وينظر إلى العلم على أنه هو الإله الذي يجب أن نؤمن به. وقد حزن الكثير ممن يعرفه بموته.

رد أنمار:

– لقد كان موت جدي خسارة لي، وموت هذا الأستاذ خسارة كبيرة للعلم والعلماء. ثم قال وهو يغير الموضوع:

– أتعرف يا واثق إنه قد كثرت في هذه الأيام، وهي تزداد كل يوم بنسب كثيرة.

ردّ عليه واثق قائلا:

– وهذا ما حصل في أنحاء العراق أيضا.

قال أنمار وكأنهم يتحدثون وجها لوجه وليس بواسطة المحمول:

– مع الأسف هذا هو الحاصل في العراق كما هو حاصل في الدول الإسلامية.

قال واثق:

– وأيضا في الدول الأخرى، مع العلم أنه ليس لديهم شهر يصومون فيه.

قال أنمار:

– المجتمع الأوربي، والمجتمعات الأخرى تختلف عن المجتمع العربي بأنظمة الغذاء، وفي السكن، وفي العادات والتقاليد، وأهم شيء في الجو والمناخ.

قال واثق:

– ربما ذلك، وإلّا ما السبب في أن تكون كثيرة جدا فيها؟ نعم ربما لأن أجواءهم باردة، أو أن عادات أكلهم وشربهم، وسكنهم، تختلف عن الدول التي تقع في المنطقة العربية لحرارة أجوائها.

قائل أنمار:

– ربما هذا هو السبب، أو هناك سببا أخر، ولكن في العراق تزداد بين يوم وأخر، وعلينا أن نكون حذرين جدا.

ساد صمت طويل بينهما في المحمول قطعه أنمار بقوله:

– ما هي أخبار ساحة التحرير؟

قال واثق:

– يوم أمس كنت هناك، وكان الذين أبقيناهم في الساحات رجال أقوياء، ويصلهم الأكل والشرب من أهلهم أو أصدقاءهم وهم صامدون بالكمامات والقفازات ووسائل التعقيم، وبالروب الأزرق.

بعدها سأل واثق أنمارا:

– وما هي أخبار الناس عندكم، في ساحة الحبوبي، وفي الحجر؟

قال أنمار:

– لقد أخبرتك أن جدي توفي، وقد دفنته في صحراء الناصرية، وأن والدي بعده لم تظهر له نتائج مشجعه تنبيء عن شفائه، إلّا أن أطباءه أخبروني بأن جسمه، ومناعته قوية وهو يكافح الفيروس الذي في رئتيه، وعائلتي ما زالت محجورة وبقي من فترة حجرهم يوم أو يومان، أما ساحة الحبوبي فهي بخير ما دامت الساحات بخير.

***

الفصل/٨

مثلما يجري الماء من الصنبور متقطعا إلّا انه يستمر بالجريان، كان توافد المشتبه بهم بالإصابة بفايروس كوفيد/١٩، يتزايد على المستشفى/الكرفان الذي سمي بهذا الاسم، وسرعان ما انتشر الخبر بين الناس في المدينة كالهشيم في النار التي ظل يتلظى في أوارها أنمار، وهو في بيت عائلته الفارغ منهم كأنه قلعة عسكرية لا جندي فيها، ولا سلاح. كانت ستائر نافذة غرفته المدهونة بدهان زيتوني فاتح، وخالية من كل زينة سوى لوحتين رسمهما بفرشاته، أحداهما منظر طبيعي، والأخرى له، وقد وضعت ساعة جدارية على الجدار المقابل لسريره، قد سمحت لنور الفجر أن يمر عبرها إلى وسادته بهدوء، وإلى فضاء الغرفة الذي إمتلأ برنين جهازه المحمول. قال بوجه شاحب لم يأخذ قسطه من النوم، وبشفتين ممتعضتين وهو يجلس على سريره الخشبي وقد التحف بلحافه الأبيض الذي يذكرة بملاءات المستشفى، وكأنه يحاكي شخصا آخر:

– أنا وحيد ولا أملك سوى الصبر على ما مر بنا من محنة، ومأساة، وأحزان، منذ أن وقعت عائلتي بين براثن كورونا، وفقدنا كبير العائلة، جدّنا الحنون، وما زالت العائلة محجور عليها في المستشفى لغاية التأكد من انهم غير مصابين بالفايروس. فرغ تفكيري من أية أفكار سوى فكرة موت جدّي ومرض العائلة.

انتبه إلى انه يكلم صديقه واثق بالمحمول ولا يحدّث نفسه، فسارع إلى القول:

– أنا آسف يا واثق، لقد ضاع عني عقلي.

قال ذلك وسكت على مضض منه. كانت الرغائب كلها تجمعت في ذلك الوقت في ذهنه المشوش، وغير الخلي من المشاغل اليوميه، مشاكل العائلة الصحية، ورغباته الحالمة في الحب والجنس، كل ذلك قد هجم عليه وكان وحيدا، لا يحمل أي سلاح.

جاءه صوت واثق عبر المحمول:

– لا عليك صديقي أتركك ترتاح قليلا في فراشك، أنا آسف لأني تلفنت لك مبكرا.

غرز أصابعه في شعر رأسه، وشكر واثق، وأغلق المحمول، وعاد مرة أخرى إلى تأملاته الذهنية، وإلى ذاكرته المليئة بما هو مثير من ذكريات عائلته دون تركيز.

كان كل ذلك قد جاء من أبيهم المصاب الآخر الذي يتمنّون من كل قلبهم أن يشفى ويعود اليهم سالما "مسلحا"[١]، إلّا انه عندما ذكر والده نفى أمام نفسه أن يكون يعلم بذلك الوباء وإلّا لكان ان ظل في الدار ولم يسافر لتلك الدولة. في هذا الوقت بالضبط، وهو في بيته على سرير نومه، كان هناك حديثا يجري بين الأطباء المسؤولين عن المصابين بالوباء، وبين رئيس خلية الأزمة في المحافظة الذي زار المستشفى/الكرفان. كان الكل مهيئا لاستقبال المصابين بهذا الوباء. قال الطبيب الأول لرئيس خلية الأزمة، فيما كانت السماء في يوم رمادي كأنها تقطّر المطر بقطارة العين على شكل رذاذ يسقط على الأرض ويختفي بسرعة، فيما تمر فيها قطع من الغيم الأبيض كأنه قطن منفوش[٢]:

١ - سالم مسلح: تعبير يقال للجندي الذي هو سالم من الامراض فيكون ضمن الجنود القادرين على حمل السلاح.

٢ - منفوش: مبعثر.

– دكتور يجب أن نطبّق ما أمرت به خلية الأزمة في العراق، ولا نتهاون مع الناس. فقد وصل ببعض الناس إلى عدم تنفيذ تعليمات خلية الأزمة.

هز رئيس خلية الأزمة رأسه كأنه يوافق الطبيب على قوله هذا، وظل يستمع لحديث الأطباء معه. كانوا ثلاثة أطباء شباب من أطباء الإقامة في المستشفى، أما أطباء الاختصاص فهم يأتون ويذهبون بعد معرفة حالة كل مصاب. أكدت الدكتورة خطيبة الدكتور الأول، وقد وضعت في جيدها سلسلة ذهبية حاملة لإيقونة صغيرة للمسيح وهو على الصليب، أكدت بحماس زائد وهي تضع الكِمامة على فمها وأنفها، وقد ارتدت القفازات الزرق في كفي يديها:

– حتى لو اضطررنا إلى أن نستخدم العنف معهم.

شاركها الطبيب الآخر الذي كان مثلها يضع الكِمامة على فمه وأنفه ويرتدي القفازات حماسها هذا. قال لرئيس الخلية:

– دكتور، لنخاطب الجيش لينزل إلى الشارع ونوقف هذا الاستهتار بالتعليمات، لقد كثر عدد المصابين وربما سنضطر إلى وضع كرفانات جديدة.

قال رئيس خلية الأزمة وكأنه يهدّيء من روعهم، وتبديد مخاوفهم، وهو ينظر إلى ما خلف النافذة حيث جاء نزيل جديد إلى المستشفى:

– لا تنس عزيزي الدكتور مصالح الناس فإنها ستتضرر في مثل هذه الإجراءات الصارمة وهم لم يعرفوها سابقا.

ردت عليه الطبيبة قائلة:

– وليكن ذلك، المهم حياة الناس لا مصالحهم.

تنهد رئيس خلية الأزمة في المحافظة وقال:

– نعم نحن هنا لنحافظ على حياة الناس لا على مصالحهم، ولكن علينا أن ننظر لمصالحهم كما ينظرون هم، وسيحل بعد أيام شهر رمضان، وسيكون الصائم نائما في النهار، أما في الليل فسنفرض منع التجوال في المحافظة.

قال الطبيب الثالث:

– هل ترى العالم كيف يتغير ونحن مكانك سر، وكأن الدنيا لا تتغير، أو لا تطلب من الإنسان أن يتغير، ويغيّر إسلوب حياته؟ كلا يا دكتور سترى بأم عينك أن الشعب سيخرج بكثافة نهارا، لا ليخالف تعليمات خلية الأزمة، بل ليطبق شروط الصيام كما هي بعد أن أصبح عادة عند الكثير من الصائمين، وهذا ليس التغير الذي نريده، إنه تغير يراد منه المخالفة بشرط العادة، وإذا كانت الدراسات لم تثبت أن كان تأثير كورونا تؤثر في الصائم بالسلب أو الإيجاب، فان المطلوب عدم التجمع أثناء

الصلاة، وبعض الشعائر الدينية الرمضانية، وعدم الاختلاط، وملامسة الأسطح الملوثة، والتوصية بشرب الماء كثيرا، وهذه التعليمات هي ما يرفضها الصائم ليحافظ على العادات لا على الدين.

وافقه رئيس خلية الأزمة بهز رأسه، وكأنه يعرف ان الصائمين سيفعلون ذلك.

سألت الطبيبة رئيس خلية الأزمة فيما أذا أثبتت البحوث الميدانية إصابة الأطفال في هذا الوباء أم لا؟ وكان أن أجاب قائلا:

– لم تثبت البحوث الميدانية مثل هذه الإصابة، وحسب علمنا أن الأطفال إلى الآن لم يصب منهم أي طفل، ثم سألها: لماذا تسألين؟ قالت له:

– أحد الأطفال، وعمره ست سنوات، جاء مع أمه المشتبه بها، وقد أمر الطبيب الاختصاص بعزله في مكان آخر لوحده لحين انتهاء حجر أمه. أجابها قائلا:

– طيب، راقبوه جيدا، ولا تتركوه يرى أمه إلّا من مسافة أكثر من متر.

خرج المجتمعون من الكرفان فقد أدركوا أن الوقت قد تأخر كثيرا، وكان الصمت هو الصوت الذي يدور في بناية المستشفى، خرجوا وهم بانتظار شهر رمضان، وكأنهم ينتظرون إطلالة هذا الشهر، وقد حمّله

رئيس الخلية الخلاص من كل مآسي الوباء القادمة، ووضع كل حصاته في جيب الصائم الذي لا يهمه سوى مصلحته، ومصلحة عائلته، في تحصيل معاشاتهم التي انقطعت بسبب كورونا، ولكن كورونا ظل ينصب الفخاخ لمن كان ساهيا عنه، أو غير مصدقا بانتشاره بين الناس، أو ملتزما بالخرافات التي يزرعها رجال الدين فيهم، وكان غير مصدق بأن يطلهم الوباء وهم مسلمون، فقد كان هذا النوع ممن لا يرغب أن يغيّر ما يؤمن به لأجل عيون الوباء. وقبل أن يصعد بسيارته الشخصية أخبرهم بصناعة جهاز للتنفس الاصطناعي من قبل مهندسي شركة القابلوات وسيزودوهم به، وستكون بعد ذلك عدة أجهزة من صنع الشركة. وإن شركة النسيج قد زودتهم بآلاف الكمامات أيضا، وهذا الذي ارتديه، قال لهم، هو من تلك الكمامات.

في الساعة الثانية عشر من ليلة اليوم هذا، كان ثمة وضوح عام في كلمة رئيس خلية الأزمة في المحافظة على شاشة التلفزيون المحلي والتي أعلن فيها عن مجموعة من التدابير الصحية، وطالب المواطنين بإتباعها خشية الإصابة بالوباء، وقد أعلن عن حضر التجوال بعد الإفطار في شهر رمضان، وطالبهم بالبقاء في البيوت، وسمح لهم بحرية التنقل والتسوق في نهار هذا الشهر معتمدا على أن المواطنين سيصومون

كلهم، وينامون في نهارهم، كما تعودوا دائما، وقد فعل المواطنون عكس ذلك، إذ انقسم المواطنون في شهر رمضان إلى ثلاث فئات، الأولى هي التي طبقت الحظر، وظلت في بيوتها، وهم المواطنون الذي يخافون من الوباء، ويحترمون قول أصحاب الرأي، وهم الأطباء، ومن ضمنهم أصحاب الرواتب، وقسم من ميسوري الحال. والثانية كسرت الحظر وهي مجبره على ذلك لتمشية مصالحها في العيش، وهم الكسبة الذين يعملون لكي يؤمّنوا لقمة عيش لعائلاتهم، ولا يريدون أن يمس هذا الوباء مصالحهم وقوت أطفالهم. والثالثة وهي التي كسرت الحظر عنادا وليس هناك ما يدعوها لذلك، وهم القسم الآخر من بعض ميسوري الحال الذين لم يلتزموا بالتعليمات الصحية، والبعض يؤمن بالخرافات تمشيا مع المقولة التي مفادها: "ذبها براس عالم واطلع منها سالم"[1]، وهم يرون أن معاندة أي تعليمات رسمية هي شجاعة ما بعدها شجاعة، وهي من موروثات الماضي ذات الطابع البدوي، وقد أكثروا الكلام المسيء لخلية الأزمة كثيرا، بل أنهم جرّموها بحجة أنها تريد أن تقطع أرزاقهم وأرزاق عوائلهم، وتساوت الفئتان الثانية والثالثة، بكسر الحظر، فوقع بعضها في

١ - ذبها براس عالم واطلع منها سالم: تعبير عامي بمعنى ان تعطي عقلك الى شخص ما ليفكر بدلا عنك لكي تكون خالي عن المسؤولية.

براثن الوباء، والبعض الآخر وقع تحت طائلة القانون، فإمتلأت السجون بهم، إلّا أن البعض أطلق سراحه لكثرة الوساطات، وكل هذه المشاعر لا تفيد مع فيروس كوفيد/١٩، وقد توقف السفر بين المدينة والمدن الأخرى، لقد كان الحظر مثل الاعتقال، هذا الاعتقال الذي حطم الحيويات كلها، كان مثل تيار كهربائي ضربهم فشلّ حركتهم وأحالهم إلى كتلة صماء، ولكن ما باليد حيلة تجاه الوباء المميت. لقد أخذ هذا الاعتقال، الحظر، حياة الناس الآمنة إلى دروب متعرجة، غير مستقيمة كشوارع الناصرية القديمة، وتركهم لوحدهم كسمك "الجرّي"[١] عند رميه على الشاطئ، فلا هي في الماء لتبقى حيه، ولا هي مطبوخة ليستفيد منها الناس.

كانت المدينة في هذا الليل الشتائي البارد، بعد السحور، ساكنة، صامته، والناس أخذت تخلد إلى النوم، فيما في الشوارع والأزقة رياح تدور وتمنح الأشياء الخفيفة الموجودة فيها روح تحركها مثل: العُلب القديمة، وقطع الكارتون، والأوراق المنبوذة كحاجة زائدة لا فائدة منها. وعلى الرغم من منع التجول بعد الفطور إلّا أن الماشين في الشوارع أكثر

١ - سمك الجري: وهو نوع من السمك الذي لا تأكله الشيعة وهناك خرافات عن ذلك المنع.

من الجالسين في البيوت، لكن أصحاب المقاهي قد التزم الكثير منهم بالحظر، وقد بات تدخين السيكارة، أو "النارگيله"[1]، في زيادة ملحوظة للتقارير التي لم يعرف مصدرها تؤكد أن النيكوتين يقضي على الفيروس، والذين يشربون الخمرة سرّوا كثيرا لوجود تقارير تؤكد أن الكحول الذي في المشروبات يقتل الفيروس، ولم يعرفوا مدى مصداقية هذه التقارير، إلّا أن المتاجرين بهذه البضاعة زادت أرباحهم، فقد كانوا يدخلون المشروبات الروحية الى المدينة بعدة طرق، فقد كانوا يهرّبونها من أعين المفارز الأمنية في السيطرات، وقد راجت هذه التجارة على الرغم من رواجها في الأيام الأخرى، وكان الذين يتعاملون بهذه المواد معروفين للقاصي والجاني، وبيوتهم معروفة ويقصدها المحتاجون لهذه المشروبات.

ومضت الأيام والليالي، وازدادت أعداد المصابين بالوباء، فقد كانت شاشات التلفزيون تعلن عدد المصابين، وعدد المتوفين، وعدد المتعافين منه. وقد وعى المواطنون الدمار الذي يخلفه هذا الوباء بالعائلة.

كانت نوال تعي ذلك منذ اللحظات الأولى لسماعها بهذا الوباء. كانت ما تزال في الحجر. اتصلت بأخيها أنمار، سألته عن الدفن فأخبرها ما كان

١ - النارگيله: وتسمى الأرگيلة وهي لتدخين التبغ بعد إمراره بالماء.

منه، لقد دُفن كشهيد، لا غسل، ولا حنوط، وبملابسه التي كان يرتديها عندما فاضت نفسه. قال لها: أنا حزين جدا لأنني لم أكن حاضرا عندما لفظ أنفاسه الأخيرة، ولا ابنه، ولا عائلته، كان وحيدا، ومن المفروض أن يكون أحد من أفراد عائلته حاضرا بقربه، إلّا أنهم أخبرونا بعد أن مات. سكت أنمار، وبدأ بكاؤهما ونحيبهما سوية.

كانت ساحة الحبوبي بهدوئها المعتاد في مثل هذا الليل الكحلي اللون، تحت وطأت هذه الظروف التي تئن منها المدينة جراء الوباء. مرت سيارة إسعاف بسرعة عالية، واستدارت حول الساحة الدائرية، ومضت تشق طريقها في الشارع، وصفارتها تدق معلنة عما في داخلها، وأضويتها الحمراء ترسم على حيطان الدور والمحلات التي على جانبي الشارع هالة من الضوء الأحمر تومض وتنطفيء لتؤشر على خطر الحالة هذه. لقد مات الضحية الثانية في المدينة بعد الحاج ريحان، أما في العراق فزادت على المئة، وفي العالم وصلت إلى مئات الآلاف.

وطلع على الملأ رئيس خلية الأزمة في العراق على شاشة التلفزيون المحلي ومنع التجوال في شهر رمضان من الساعة السادسة مساء إلى الساعة السادسة فجرا، فكان المستشفى/ الكرفان قد اكتظ بالمشتبه بهم، إزداد عددهم، تأتي المفارز الصحية بهم من دورهم، بعد إخبار من

مجهول عن شخص عاد من البلد المجاور، أو من خلال الازدحام على شراء المواد الغذائية، وكون المكان غير معروف من يقف فيه، وهل كان مصابا أم لا، لأن الإصابة لا تتوضح للشخص إلّا بعد فترة زمنية، تطول أو تقصر، فيحجرون ويخضعون إلى الفحص الخاص بوباء كورونا، ومن يكن مصابا بفيروس كوفيد/ ١٩ يدخل غرفة العناية المركزة، ويوضع تحت رحمة جهاز التنفس الاصطناعي، وتأخذ منه مسحات لارسالها إلى المختبر المركزي في بغداد لفحصها.

في ساحة الحبوبي، وتحت فجر أول شهر ربيعي، على الرغم من أن المدينة لا تعيش الفصول في أوقاتها، إذ نجد السماء ترسل مطرها في فصل الربيع، أو أن الشمس تطلع حارة، ولهيبها كلهيب جهنم، ألّا أن الساحة تعاني من عدم وجود أي ثائر فيها سوى بعض الأشخاص الذين يمثلون الجهة النقابية، أو الاتحاد، أو يمثلون بعض فئات الشعب، وكانت في نهار شهر رمضان خالية من البشر، فيما الأسواق والمحال التجارية مفتوحة ومكتظة بالمتبضعين. وكان خوف الطبيب الأول من هذا الازدحام القاتل الذي مصدره قلة وعي المواطن بهذا الوباء، قد أزداد كثيرا.

في هذا النهار الذي طلع على نجلاء، وعائلتها، محجور عليهم في المستشفى/الكرفان، أربعة عشر يوما عليهم أن يقضوا في الحجر، كانت تحاول أن تتصل بنوال لتسألها عن حالهم، إلّا أنها لم تفلح، وكانت النتائج لها ولعائلتها قد وصلت من المختبر المركزي في بغداد وهي سالبه، "negative"، وعليهم أن ينتظروا فحص آخر، ليتأكدوا من عدم إصابتهم نهائيا، إذ يأخذون مسحات منهم ويرسلوها إلى بغداد، وعندما تكون النتيجة كالأولى فهذا معناه أنهم غير مصابين بفيروس كوفيد/١٩.

سألت نجلاء احد الممرضين إن كان بوسعها إرسال رسالة إلى أحد المحجور عليهم، رفض الممرض أول مرة، وبعد إلحاح منها وافق على مضض، وهكذا استطاعت من مراسلتها والحصول على رقم محمولها، فتلفنت لها بعيدا عن عائلتها. سألتها عن أحوالهم، وكانت قد أخبرتها عن سبب وجودها هي وعائلتها في المستشفى، وأخبرتها عن ملامستها لسلام، وعرفت منها إن نتائج عائلتها سالبة "negative"، قالت لها:

– رجاء نوال لا تخبري أحدا بذلك، إنني أعتبرك مثل أختي وأخبرك بهذا السر الذي جاء بي وبعائلتي إلى الحجر الصحي، أهلي لا يعرفون بذلك.

ردت عليها نوال بثقة تامة وهي تلوك قطعة صمون:

– لا تخافي، سرك بأمان، لم يخبرنا سلام بذلك، ولكن لا بأس عليكم، صدقيني لا شيء عليكم، ستخرجون من الحجر كما دخلتهم فيه، سالمين من كل مرض.

سألتها نجلاء عن جدها، فأخبرتها بأنهم فقدوا جدهم. وانفتحن على بعضهن، بعد فترة طويلة من الجفاء غير المبرر له، وسرّت كل فتاة بما تشعر به إلى الأخرى. قالت نجلاء وهي توصي نوال بأنها تسلم على سلام.

قالت لها نوال بعد أن انتهت من أكل الصمونة التي يقدمها المستشفى مع الأكل للمصابين:

– سأخبره بكل هذا، أما أنتِ فأرجو أن تنتبهي إلى عائلتك.

وودّعن بعضهن، وتمنين لكلا العائلتين الشفاء من هذا الوباء. كان حديث الفتاتين قد انصب على علاقة سلام ونجلاء، وكيف أن نجلاء كانت تحب سلام على الرغم من زعل العائلتين على بعضهما، وعرفت نوال مدى تأثير أخيها سلام في هذه الفتاة البريئة، وأكدت لنجلاء إن هذه الأزمة ستمر فيما يبقى حبهما سالما منها، وسيذوب جليد الوباء ويخلف ماء صافيا، يمكنهم أن يتابعوا فيه حبهم.

كل هذه التغيرات في المدينة حصلت خلال أشهر قليلة، إلّا أن أهم تغير حصل هو فقدان الأعزاء، هذا الفقدان الذي عاشته عائلة الحاج ريحان وكانت هي المسبب فيه، ووقعت عليها نتائج هذا السبب.

***

الفصل/٩

كان الناس في العالم، وفي العراق خاصة، مشدودين كحمار الناعور إلى شاشات التلفزيون، وهي تستمع إلى أخبار فيروس كوفيد/١٩، ووباء الكورونا الذي انتشر في العراق، وفي دول العالم، فبات الكل تحت رحمته، فلا فرحة تزورهم، ولا سرور يغشاهم، ولا تهنأ أنفسهم، وإنما تغطيهم غلالة من الحزن الأسود كالعباءة السوداء التي ترتديها المرأة العراقية لتغطي جسدها. وقد زارهم هذا الوباء في فصلي الخريف والشتاء، فأحال ربيعهم إلى خريف، وشتاءهم جهنم، بل هو السعير، فباتت حياتهم على شفى حفرة من الموت، فقال الناس لنصبر عليه حتى يأتي فصل الصيف الحار، وفي العراق حرارته تصل إلى درجة حرارة جهنم على الرغم من أن الذي قال هذا لم يتلظّ بحرارة جهنم، أو يراها. فيما قال آخرون، وهم المتدينون من المسلمين، نصبر لحين اكتشاف الكفار، ويقصدون بذلك العلماء المسيحين وغيرهم من الديأنات، لعلاج له، فراحت مواقع النت تتندر بهذا القول، والوباء القاتل يأكل من جرفهم

كأنه مزرف[١] رفيع، فلا يترك لهم فكاكا على صعيد الحياة الاجتماعية، أو الحياة الاقتصادية، وهو لا يفرق بين فقير أو غني، وبين كاسب أو وزير، عسكري أو مدني، فقد أجتاح هذا الوباء حتى منتسبي حاملات الطائرات الأمريكية، والفرنسية، وهي في عرض البحر. والسفن التجارية، والسياحية، والشخوص المسؤولين. طال رئيس الوزراء الانگـليزي، والكاتب الصحفي صباح الشاهر، والروائي التشيلي لويس سيبولفيدا، وبعضهم مات به، وكلهم بعمر أكثر من ستين عاما، ولم يستثن أي شخص مهما كانت منزلته في المجتمع، وحتى رجال الدين من كل الأديان المسماة بالإبراهيمية، أو الأديان الوضعية، فقد أصابهم هذا الفيروس ولم تفد معه أدعية الداعين، أو إبتهال المبتهلين، أو اللجوء إلى فلان وفلان[٢]، أو"تفال" السيّد[٣] في فم أي مريض ليشفى، وقد قيل

---

١ - مزرف: مثقب.

٢ - اللجوء إلى فلان أو فلان: يشير الكاتب إلى ما كان يراه على شاشات التلفزيون من زيارة الناس لاضرحة الائمة ودعوة أحد رجال الدين لهم بكسر الحظر والاشتراك بالزيارة، وكان ما كان من زيادة المصابين بفيروس كورونا. وكذلك ما شاهده على شاشة التلفزيون من أن امرأة لديها طفلين أحدهما مريضا وهي تريد أن تزور ضريح شريفه بنت الحسن، تلك المرأة الوهمية التي قال عنها أحد مراجع الشيعة انه ضريح وهمي ولا توجد عند الحسن بنت بهذا الاسم، هذه الخرافات والترهات التي تدور بين العامة من الناس.

٣ - التفال: البصاق، يشير الكاتب إلى الحادثة التي وقعت في قضاء المشخاب، في أن سيد كان يطبب المرضى بتفاله في فمهم، وكان هذا السيد مصاب هو وعائلته بوباء كورونا، فزارت القضاء مفارز من الصحة والشرطة وقاموا ينادون بمكبرات الصوت عن كل شخص تفل في فمه هذا السيد.

سابقا "يصعب تحرير الحمقى من الأغلال التي يقدسونها"، وهم الذين وضعوا هذه الأغلال في أيديهم، وكان عادلا في توزيع الإصابة بين الناس. لقد قدم العالم الآلاف من الضحايا، والملايين من المصابين، وهو في ازدياد، لهذا كانوا أشد حذرا من الإصابة بالفيروس، وكانوا قد هيأوا قلوبهم وكأن هذا الوباء غير زائل، وعليهم أن يكونوا مستعدين له، فاشتروا الكمامات على الرغم من أن ضعاف النفوس قد ضاعف سعرها أكثر من مرة، واشتروا القفازات بكل ألوانها، السود، والبيض، والزرق، وحجروا أنفسهم في دورهم إلّا للضرورة التي تستدعي الخروج، على الرغم من أن الناس في العالم هيأوا أنفسهم وكأن الفيروس سوف لن يغادرهم، إلّا أنهم لم يفقدوا الأمل بزواله واستعادة الناس لحياتهم الاعتيادية. وكان كل ما يتحدثون به هو مسكّن آلام وقتي، وأن أغلب الحديث الذي يجري بين اثنين هو كيف ستنظّم حياتهم بعد كورونا، فقرار البعض على أن الحياة لم تعد كما كانت قبل كورونا، إذ إنها تحتاج إلى تدرج في المسير، ولا تعود مرة واحدة. فيما كان أي أمل آخر، أو غاية، أو هدف، قد غادرهم وحل محله أمل القضاء على وباء كورونا بفضل العلماء في شرق الأرض وغربها الذي سيهتدون إلى علاج لهذا الفيروس.

وكما قال الفيلسوف الإغريقي هيرقليدس: "إنك لن تنزل في النهر مرتين"، ظل الناس قد أشغلوا تفكيرهم بالكيفية التي ستكون عليه الحياة بعد كورونا في المستقبل؟ وفي العراق قامت أصوات الثائرين تتعالى على الفيس بوك وتعلن أن الثائرين ما زالوا عند عهدهم باقين، وما زال صوتهم عاليا ليسكت أصوات أحزاب المحاصصة، والسرقة، والنهب، وقرروا أن يقوموا بمسيرة مليونية عند انتهاء أزمة كورونا، حتى قالوا في الأدبيات التي نشروها "إن انقطاعهم هو استراحة مقاتل".

كانت سماء المدينة قد تلبدت بغيوم سود، واكفهر وجهها، وراحت الشجيرات التي تحرس تمثال المجاهد الشاعر الحبوبي بالاصفرار، والإصابة قد وصلت إلى ذروتها في العراق، وقد مات الكثير في هذا الوباء، وعلى الرغم من ذلك كان بعض الناس متفائلين في إنه سينحسر ولا يبقى شيئا منه سوى الذكريات، إلّا أنها ذكريات مرة لفقدان بعض الأحبة، واستغلال أحزاب المحاصصة هذه الفترة لاختيار رئيس وزراء رفضته تنسيقيات الثورة في الساحات، إلّا أنها رتّبت كل أمورها في توزيع المناصب.

لم يكن محل أحمد الحاج ريحان بالمحل الصغير، ولا هو بالمحل الكبير، بل أنه كان بيتا كبيرا استأجره، وهدّم الجدار الذي يقع على

الشارع لغرف الدار، وركب عليها أبواب حديدية تفتح وتغلق مثل الأبواب العادية، فكان محلا كبيرا، يضم مخزنا كبيرا يضع فيه كل بضاعته التي يستوردها من ذلك البلد المجاور.

وفي آخر سفرة له كان قد عاد منها ببضاعة كثيرة. كل شيء يحتاجه المطبخ العراقي قد استورده، الرز، العدس، الحمص، الفاصوليا، الباقلاء اليابسة، اللحم، الدجاج المذبوح، المعجون، وكل شيء، حتى الحليب ومشتقاته، وفوق ذاك جاء بالوباء.

لم يكن يعرف أن المرض قد انتقل إليه عندما كان في ذلك البلد، ولا يعرف كيف، ومتى، وأين، إلّا أن الذي يعرفه أنه مصاب بهذا الفيروس، وقد نقل عدوى المرض إلى الرجل المسكين أبيه الحاج، وحتما أنه لا يصمد أكثر من أربعة أو خمسة أيام، كان يقول مع نفسه: كنت أنا السبب، ومني انتقلت العدوى إليه، فهل يقبل والدي إعتذاري؟ كنت أنا السبب، ومني انتقلت العدوى إليه، فهل يقبل والدي إعتذاري؟ وهل انتشر هذا السر بين الأهل، أم يبقى سرا لا أبوح به؟ وإلى متى يبقى؟ هل إعتذار عن الموت الذي سببته له أنا العاقل، وهل بقي عقل فيّ؟!! والأطباء الذين عرفوا بعد أن أخبرتهم، هل سيحافظون على السر هذا، أم انهم نشروه، فبات الذي لا يعرف يعرف. إذ تعاد اسطورة الفداء بالعكس

مما كانت تروى، فلم يكن هناك جبرائيل يرفع يدي والسكين من ذبحه؟ قال ذلك مع نفسه ولامها على ذلك، وهل يفيده لوم نفسه؟ وهو الابن الذكر الوحيد لهذا الحاج بعد ابنته المتزوجة في البصرة، ابن عمتها. كان يأمل منه أن يدفنه عندما يموت لا أن يكون سببا في موته. تساءل مع نفسه وهل هناك أحدا يسمعه في هذا الحجر الصحي في غرفة الإنعاش؟ تساءل: "هل ذنبي هذا؟ صدقوني لم أكن أريد أذيّته، ولا نقل الوباء له"، أهكذا يرد جميل والده؟ صاح بصوت مكتوم: آآآآه، ونزلت دموعه على خديه. فيما كان جهاز التزود بالأوكسجين يمده بهذا السائل/الغازي الذي ثقل استنشاقه عليه، فوجد صعوبة في ذلك، كان صدره يسحب الشهيق، ويدفع الزفير بصعوبة قوية. وكانت الحكة التي لازمت والده، وقتها، والتي تدفعه للسعال، قد انتقلت له، فلا أحد يحك بلعومه بدلا عنه بعد أن وضعوا قرّاصات تحمل أسلاكا كهربائية إلى جهاز بارومترات القلب في مناطق صدره، وساقيه، إنهما في كرفان غرف العناية المركزة.

بعد عدة أيام من موت الحاج، إذ نزلت كمية الاوكسجين في دمه أقل من المستوى المطلوب حسب جهاز "الأوكسيميتر"، وهو الضحية الأولى في المدينة. وكانت إيذانا بدق ناقوس الخطر. كان الممرض الذي ظل طوال ليلة البارحة خفيرا، لم يذق حلاوة النوم، في هذه الردهة الكرفانية،

إذ كان يدور على المرضى في غرف رقادهم في العناية المركزة، قد شعر في الساعة الخامسة فجرا أن حرارة المصاب أحمد قد انخفضت كثيرا، وبدأت تنسحب تدريجيا من جسمه، وربما زايلته أيضا، وان تنفسه انتظم بصورة جيدة، وأصبح شهيقه وزفيره سهلا ورهوا ولا صعوبة فيه. تساءل مع نفسه: هل هذه علامات الشفاء من المرض، أم إنها حالة اعتيادية للمصاب به، ترتفع درجة حرارته وتهبط، عدم استقرارها، فيما يكون تنفسه مرة منتظما ومرات غير منتظم، وعسيرا جدا؟ فيما بدأ نور الصباح ينبلج شيئا فشيئا، بعد أن تحول من ضياء الفجر إلى ضياء الصباح، فعكسته جدران الكرفان الأبيض.

ذهب بسرعة إلى الطبيب الخافر الذي يجلس في الغرفة المجاورة لباب الكرفان، أخبره بحالة المريض أحمد، وشرح له كل شيء، فسارع الطبيب إلى غرفة المصاب وفحصه جيدا، ثم قال للممرض:

– سننتظر إلى الصباح ونفحصه، ونأخذ عينات من دمه، وبلغمه، ومسحات كذلك، ونرسلها إلى المختبر المركزي في بغداد.

كان أحمد يستمع لحديث الطبيب والممرض، فكانت الفرحة كبيرة إلّا ما كان ينغصها هو حالة أبيه، أبيه الرجل المسن، فهو لا يقوى على تحمل مثل تأثيرات هذا الفيروس.

كان أشد ما يخاف منه هو موت أبيه، الرجل الذي كان هو سببا في نقل الفيروس إليه، والرجل المسن. أنشغل فكره بهذا الهاجس القاتل، وهو ما زال رأسه على وسادة المستشفى، وماسك الأوكسجين يجلب لصدره التعبان شهيق الغاز الذي فقده في الهواء، ويزفر ما ترسله رئتاه للخارج من غازات ومخلفات جسده الغازية بحالة ضعيفة، كانت الرئتان هما هدف الفيروس.

لم يخبروه بموته قبل أيام، وعندما جاء أحد الممرضين بورقة ووضعها أمام عيني أحمد، أرسلتها له ابنته نوال لأنه لم يستطع الكلام لوجود ماسك الأوكسجين، وبعينين شبه زائغتين قرأ ببطء ما مكتوب في الورقة، إن أنمار جاء من بغداد، زفت له خبر وصول نتائج فحصهم من بغداد وكانت جيدة، وستخرج العائلة من الحجر، ولم تذكر له وفاة جدها خوفا عليه من الصدمة.

وبين غفلة نفسه ويقظتها، تمنى لو أنه يقف على أخبار جيدة عن والده. انتبه في يقظة نفسه إلى الغرفة التي ينام فيها، لم يكن أحدا فيها غيره، بيضاء كما عهدها أول ما دخل فيها، حتى الطبيب، والممرض، جاؤوا إليه وفحصوه وخرجوا مسرعين، ولم تسنح له الفرصة بالحديث معهم. كانوا يرتدون البدلة البيضاء والكمامات، والقفازات، والنظارات

الشفافة. استرق السمع لهم دون فائدة، تحدثوا فيما بينهم ولم يسمع ما جرى بينهم من حديث، كانوا يتحدثون بصوت منخفض وصل حد الهمس بعيدا عنه بعض الشيء، ربما بسبب التعب الذي هدّ أجسادهم طيلة الليل. تأوه بصوت لم يعرف أذا كان صوت تأوهه مسموعا أم لا، إلّا انه أطلق صرخة خرجت من فمه آهة زفرها بقوة ما استطاع إليها سبيلا، آآآآآآآه طويلة أطلقها من فمه، وحدّث نفسه بألم فوق ألمه، فيما غشت الدموع الحارة عينية:

– سامحني يا أبي، أنا الذي جلبت لك هذا المرض المميت.

لا يعرف كم من الأيام مضت عليه وهو على هذه الحالة البائسة، ولم يعلم بموت والده الذي انتهت أيامه في الحياة، مثل أحجار الشطرنج بيد لاعب غير ماهر وقد اصطفت خارج الرقعة الملونة بالأسود والأبيض، أو كما يقول العامة من الناس "لقد انتهت خبزته"[1]، ولا أخبرته ابنته، ولا الطبيب، ولا أحد من الممرضين، كل شخص كان قد أخفى عنه أمر وفاة والده الحاج، وتحت سماء ملبدة بالغيوم، كحالها بين فترة وأخرى، كان حفيده أنمار، الذي رسمت تحت عينيه المضيئتين بلون أزرق،

١ - لقد انتهت خبزته: تعبير عامي يشير إلى وفاة الشخص.

هالات سوداء من كثرة السهر والتعب، وقد أنهكت أعصابه، قد تسلم الجثة من الطب العدلي وشارك في دفنها، بحراسة مشددة من قِبل المفرزتين الطبية، والأمنية، تحت الأرض بأمتار عديدة.

كانت مسألة الدفن لم تصدر بها تعليمات، أو فتوى من مرجع ديني، في كل الأديان الموجودة في العراق، وانشغلت مواقع التواصل الاجتماعي بهذه القضية، فباتت رأي عام يتداول بين لحظة وأخرى، وكثرت المناشدات لإيجاد حل لها، فمن قائل يجب أن تحرق جثة الشخص الذي يموت جراء هذا الوباء، واعترض المعترضون عليه، وقالوا نحن مسلمون وليس هنود، ولا يصح أن يحرق الميّت، ومن قائل يجب أن يدفن تحت الأرض بكذا متر بالملابس التي يموت فيها لأنه يعدّ شهيدا، ويروي حديثا إلى النبي مشكوك في صحته: "ان الغريق، والمحروق، والذي تقع عليه طوفة[1]، والذي يموت بالوباء، هو شهيد". ومن قائل كذا وكذا. وبعد عدد كبير من الموتى أفتى رجل دين مسلم بدفن موتى الوباء في المقابر الاسلامية كما تدفن الناس العاديين. وقد أظهر هذا الوباء كم أن رجال الدين هم أميون، لايفقهون شيئا مما حداهم

١ - طوفة: سياج، أي أرض يدور حولها مثل الطواف.

وقد وضعوا كل الأمر في يد الله وجلسوا ينتظرون. إلّا ان الأمر قد تم مع جثة جده بدفنها تحت الأرض بعدة أمتار، وبملابسه الذي مات فيها، في صحراء مدينة الناصرية.

قال له سائق الحفار بيقين لا لبس فيه:

– المسلم يدفن حيث يموت.

ردّ عليه، وكأنه يخاطب بقية الرجال، وهو يمسح دموعه التي نزلت على خده بورقة كلينكس بيضاء:

– أنا لا يهمني أين يدفن، إلّا أن ما أزعجني هو أن عائلته لم تشارك في الدفن، ولم يشيّع باحترام، لا عائلته، ولا أصدقائه، ولا معارفه، شيعوه، ولا حتى أذيع بين الناس خبر وفاته مؤذن الجامع لكي يعلم الناس انه قد مات، وهذا كله تكريم وتقدير له من عائلته، وأصدقائه، ومعارفه. لقد خرج من دنيانه إلى العالم الآخر دون توديع.

كان دائما يسمع جده يحدث ابنه أحمد، والده، بأنه يريد تشييعا مهابا تمشي فيه عائلته، النساء لا، أكد له مستطردا، وأصدقائه، ومعارفه، وأن تعلن ساعة التشييع، لأن الكثير من أصدقائه، ومعارفه، يسكنون بعيدا. قال مع نفسه: لم يتركوني أن ألقي عليه نظرة أخيره، قالوا أن ذلك ممنوع صحيا.

وفيما كان أنمار يبكي جده الذي بين أيدي الممرضين وهم ينزلونه بالكيس البلاستيكي الذي وضعوه فيه، في الحفرة التي عملتها الحفارة التي رافقتهم إلى خارج المدينة في الصحراء التي تفصل العراق عن السعودية، وقد أحنوا ظهورهم. كان سائق الحفارة يضع الكِمامة البيضاء ويرتدي القفاز الأزرق، وكان فكّ أسنانه العلوي ناتئة للأمام بعض الشيء، فيما كان دائما يستخدم السائل المعقم الموجود في قنينة صغيرة في فتحتها جهاز رذّاذ يعمل بالضغط عليه، ليعقم القفازين. كان الصمت هو المخيّم على رجال المفرزتين غير المعروفين ملامح وجه كل واحد منهم لإرتدائهم البدلة "الچَفِت" البيضاء اللون، والنظارة الشفافة، والقفاز الازرق. وكذلك الذي يدور في المنطقة الرملية التي حولنا، كان رجلا صالحا، حدّث نفسه، ويعرف الله، وهو حاج لبيته، وكانت، هذه الصحراء، تبدو أكثر حزنا من حفيده، والمنطقة التي وقفت فيها سيارة الإسعاف، بعد هذه المسافة الطويلة التي قطعوها، خالية من كل شيء، حتى من نبتة صغيرة يستهدي بها عندما ترغب عائلته بزيارة جده بعد انتهاء وباء كورونا، سوى الرمال الناعمة التي تذروها الرياح والتي تهب على المنطقة بين الحين والآخر. وإن ما يؤلم الناس، وهو الحقيقة الباقية، مثلما أن النخيل يعطينا التمر، وشجرة السدر تعطينا النبق، هو

موت أحبائهم بعيدا عنهم، دون غسلهم، ووضع الحنوط عليه من سدر، وكافور، أو وضع شاهدة قبر تستدل بها عوائلهم، أي شاهدة قبر بسيطة، ويدفنون دون حضورهم، وتوديعهم، وعدم إقامة مراسيم الجنازة والدفن هي الحقيقة الباقية التي خلّفها جدّي. كان يحبني، أنا بِكر ابنه، لقد سقطت قبل أخي التوأم بخمس دقائق، كان متعلقا بي، كان يزاحم أبي في حبي لهما، كان حتما عندما مات ينادي باسمي إلّا أن الأطباء والممرضين لم يدعوني اسمعه، أو أكلمه، كم هم مجرمون؟

كان يجب عليّ أن أقنع إدارة المستشفى بدفنه في المقبرة الخاصة بعائلتنا في مقبرة النجف، إلّا انهم لم يقتنعوا، وأخبروني بدفنه في الصحراء تحت الأرض بعمق خمسة أمتار. وقد كان جدي قد اشترى أرض في مقبرة النجف وأعدها مقبرة لنا ودفع كل ثمنها. كان يؤمن بأن الميت يجب أن يدفن قرب الامام علي لكي يشفع له يوم القيامة، لكنه لم يكن يعلم انه الوحيد الذي لم يدفن بمقبرته. كان أحد الممرضين أخبرني بأن ثمن أرض أي قبر قد أصبح بملايين الدنانير وقد أثرى الدفانة من جراء ذلك، وهم يذكرون ان الشيعي يجب أن يدفن في أرض النجف. وسألني: من أين لك هذه الملايين والعائلة تمر بإزمة صحية؟ أخبرته أن للعائلة مقبرة في النجف، إلّا أن هذا لم يقنع أدارة المستشفى.

انتبه سائق سيارة الإسعاف للحيرة التي انتابت أنمار وهو يبحث عن شيء يعلّم عن قبر جده، فأنزل من مخبئ في سيارة الإسعاف عتلة حديدية طويلة كثيرا ما كان يستخدمها في فتح إطار سيارته، وناولها لأنمار، وقال له بصوت شعر أنمار أن فيه رنة حزن، وقد فقد بلعومه الكثير من اللعاب:

– هاك[1] اغرزها في الرمل الذي على القبر.

شكره وفعل ذلك، وأبقى قليلا منها خارج الرمل. أشعل دزينة من أعواد البخور التي وجدها في جرّار "كاونتر" مطبخ داره قبل أن يخرج منه. وزّعها على رمل القبر بعد أن رشه بقليل من الماء الذي عثر عليه في سيارة الإسعاف، وقرأ الفاتحة، كما قرأ بقية أعضاء المفرزة الفاتحة نفسها. عادوا، فيما كان أنمار بين الفينة والأخرى يتلفّت وينظر إلى قبر جده، وعيناه ما زالت تسح دموعا حارة، حتى غاب القبر عن ناظريه. لقد كان حزنه على جده لا يوصف.

لقد وضعت إدارة المستشفى مجموعة من التوابيت الخشبية قرب الكرفانات مهيئينها لمن يموت في هذا الوباء. وكانوا قد قر قرارهم على

١ - هاك: كلمة تستخدمها العامة بمعنى خذ.

أن يدفنوا الميت المصاب بملابسه داخل كيس بلاستيكي عُدّ لذلك، ومن ثم يقوموا بتعقيم التابوت لميت آخر. وكان الحاج هو أول المغادرين لهذه العالم في هذه المدينة التي جعلها سياسي بعد عام ٢٠٠٣ بائسة، ومظلومة، حتى ثار الثائرون، واستشهد جراء هذه الثورة العشرات برصاص الحكومة.

لم يشترك بالحديث الذي جرى بين أفراد المفرزتين، الصحية والأمنية، وهم ما زالوا في ملابسهم الصحية للوقاية من فيروس كورونا. هذا الحديث الذي انصب على أن الميت جراء هذا المرض يعدّ شهيدا ويدخل الجنة بلا أسئلة.

قال أحد أفراد المفرزة الأمنية وهم في سيارة الإسعاف التي نقلت جثمان الميت بسبب كورونا:

– لقد قرأت مرة أن الميت في أي مرض هو شهيد عند ربه.

قال الرجل كبير السن من المفرزة الطبية:

– كان علينا أن نصطحب أحد رجال الدين معنا أثناء الدفن.

قال أحدهم:

– هو شهيد ومأواه الجنة، لأن موته جاء بسبب المرض، والله لا يحب ذلك.

– ماذا يفعل رجل الدين؟

قال أنمار ذلك مع نفسه، وتبسم رغم حزنه في سره، وتابع القول دون أن يجري ما يفكر فيه بصوت عالٍ:

– أولئك أصحاب لحى التيوس[1]، كما كان يردد بلال، وقد مات جدّي؟

فكر أنمار بجدّه الذي ردم قبره بالرمل قبل دقائق، وهو يستمع إلى حديثهم هذا ويضحك في سره ولم يتفوه بأي كلمة، على الرغم من حزنه الشديد على جدّه المتوفي، وعلى عائلته المحجور عليها وهم لم يحضروا دفن كبير العائلة، ولم يودعوه. قال مع نفسه مؤكدا وقد خلا وجهه من أي تعبير:

– إن كان جدّي يذهب إلى الجنة أو كان يذهب إلى النار، ماذا يفيده هذا إذ كان قد مات وانتهى كل شيء؟ ها؟ تسائل: كيف أن الله لا يحب أن يموت الإنسان بالمرض، في حين يقولون إن ما يصيبنا إلّا ما كتبه الله؟ كيف يستقيم هذا الأمر؟ لقد كان للدهر جنود من كوفيد/ ١٩، كما قال معاوية بن أبي سفيان، كما تذكر المصادر، عندما دس أعوانه السم في عسل قدم لمالك بن الأشتر: إن لله جنودا من عسل.

١ - لحى التيوس: رجال الدين كما سماهم الفيلسوف الرازي.

شارك أنمار في حديث أفراد المفرزتين. قال:

– إن بابا المسيح ينكر وجود الجنة.

إندهش كل أفراد المفرزتين. بدى على وجوههم من تحت الكمامات والنظارات الشفافة بعض الاندهاش. قال أكبرهم سنا:

– هذا مسيحي كافر، لا يهمنا قوله.

عندها سكت أنمار، ولاذ بحزنه على جدّه دون أن يقول كلمة واحدة، ليس خوفا من هذا الشخص، أو غيره من أفراد المفرزتين، ولكنه خشية على جدّه، والموقف الذي خلقه دفنه، ولو كان في زمان ومكان آخر، وموقف غير هذا الموقف، لناقشهم عما طرحوه من أفكار بيّنوها عند دفن جدّه. بعد فترة من الصمت، سوى صوت محرك سيارة الإسعاف يدوي في أذنيه، قال أنمار محدثا أفراد المفرزتين:

– البارحة عرض التلفزيون مشاهد لتوديع جنازة ثور كبير في إحدى قرى الهند، وقد سار خلف الجنازة المئات من المشيعين الذين أخذوا المباركة من الثور الميت، وألقت القبض عليهم الشرطة وتم حجرهم ووجدوا أن الوباء انتشر في الكثير منهم.

ضحك الجميع، ولم يعلق أحدا منهم بل ظلوا صامتين تهزهم سيارة الإسعاف وهي تسير بسرعة في الطريق الصحراوي، ودويّ محركها يصوّت في أذنيه.

بين هزات السيارة، تذكر أنمار الطريفة التي رواها الجد الميت، وقد تمالك نفسه خشية أن تفلت منه ضحكة في هذه المناسبة الحزينة وهو من عائلة الميت. ان جده قال لهم وهو يضحك: ان صديقه، قال له: –

– لماذا لا تذهب إلى النجف وتبيع الطرشي هناك؟

اندهش جدّي من هذا القول، وسأله:

– لماذا؟

رد عليه ضاحكا:

– لكي تكون قريبا من المقبرة.

سأله جدّي:

– لماذا؟

قال له صديقه:

– انك شخص سمين وسيجد المشيعين معاناة كبيرة في نقلك من الناصرية إلى النجف.. انك تفعل خيرا لو انتقلت إلى النجف.

عندها همّ جدي بضربه بالكاسة التي يدير بها الطرشي من بستوكة الأخرى[1]، إلّا ان صديقه هرب منه وهو يضحك.

كان ملك الموت، كما يحلو لبعض أصحاب الصفحات على الفيسبوك أن يتندر، قد أعيد إلى العمل في هذا العالم، بعد أن أحيل على التقاعد، وكان عمله مستمرا ولا يجد الوقت الكافي لحك رأسه، فقبض بهذا الوباء على الكثير من أرواح الناس، ففقدوا أحبتهم، وأتلف أجسادهم فبدت هزيلة لا لأن الوباء هو هكذا يعمل في الأجساد، وإنما كان تفكيرهم قد أصبح أكثر من اللازم، حيث يأخذهم التفكير إلى شعاب عديدة، وكل هذا ينخر في أجسادهم كما ينخر الدود في الخشب القديم. لقد كان الوباء ذو حدين لهم، حد معنوي، نفسي، إذ يأكل النفس، فيعافها نخرة، مسوّسة، لا نفع منها، وآخر مادي، جسدي، يأكل الأجساد مهما كان حجمها، فيتركها هي الأخرى مثل خشبة تأكل فيها دودة الأرضة، وكلاهما الواحد يؤثر في الآخر.

عندما عاد أنمار إلى بيته في وقت الفجر بعد ليلة الدفن الذي تم في آخر ساعات ليل الصحراء البارد، والهادئ، وبنفس الوقت العاصف،

١ - بستوكه: إناء فخاري يخلل فيها الطرشي.

كان منهكا، وعيناه قد ذبلتا من البكاء والسهر، وشفتاه يبستا حتى أنه خاف عليها من التشقق، وبلعومه ابتلع ما فيه من سوائل فجفّ كما تجف عيون الماء من الجريان، فيما ساقاه لم تعودا على حمل جسمه المنهك. لم يجب على تساؤلات أهالي المحلة سوى بكلمة الله يرحمه، حتى لو كان السؤال عن أهله، كان يردّ بهذه العبارة لتشتت تفكيره وتيهانه بين المستشفى والصحراء، وقبر جده، وساحة التحرير، وجماعته الذين تلفنوا له وأخبروه بما دار في اجتماعهم.

كان أنمار قد استلم رسالة نصية بواسطة محموله من صديقه في الكلية يطلب منه أن يأتي إلى بغداد، وحدّد له مكانا يلتقي فيه مع أصدقائه في تنسيقية ساحة التحرير. كتب ردا على هذا الرسالة إعتذر فيها من صديقه بعدم وجود وسيلة مواصلات تنقله إلى بغداد، وطلب منه أن يوافيه بالأخبار المستجدة. في الوقت نفسه استلمت نوال وهي في الحجر رسالة نصية مفادها إن تجمعا لتنسيقية الحبوبي ستعقد غدا في الساعة العاشرة صباحا لأمر هام، فردت على الرسالة برسالة تخبرهم إنها في الحجر الصحي.

***

الفصل/١٠

عندما ينزل المطر، ويسمع صوته وهو يتغلغل بين شقوق الأرض، كمن ترتوي منه، فان كل شيء ينحل ويتفكك، وهذا ما يفكر فيه المزارعون، وعامة الناس، إذ تكون هذه السنة سنة خير، لأن منتوجها سيكون وفيرا، وهذا التفكير من مخلفات المجتمع الزراعي الذي يعتمد على المطر في السقي، كما يحدث في العراق من شماله إلى جنوبه الذي يعتمد الطريقتين في السقي، السقي من النهر، والسقي من المطر النازل، في ري الأراضي المزروعة، حيث أكثر محاصيل المدينة من الحبوب تنتظر المطر، وفي نهار يوم الجمعة التي يرسل فيها بعض الناس رسائل على الخاص في صفحات الفيسبوك عبارة "جمعة مباركة"، وكأن كل أيام الأسبوع غير مباركة، في ذلك اليوم الذي يعتقد بعض الناس بمباركته، نزل المطر، وفتحت براميل السماء، إذ نزعت كل أغطيتها ففاض بالخير الذي مدحه بعض الناس وهم لا يعلمون إن المطر في هذا الشهر، شهر نيسان، يدمر مزروعات الحنطة والشعير التي أصبح جاهزا للحصاد، وقد نزل دون أن تشتهي الناس، وقد كانت

السماء طوال الليل لم تتوقف عن هطول أمطارها، وتعداه إلى اليوم الثاني، وليله، أيضا، وتوقف عن النزول صبيحة اليوم الثالث، وكان نزوله في غير أوانه، فكان مثل حاجة لا فائدة منها، إلّا أنه استمر بالنزول بغزارة وكأنه شلال ماء نازل من ارتفاع جبل عال. كان هذا المطر فألا حسنا على عائلة الحاج المرحوم، إنه يحمل البشارة المفرحة في وقت حزين، فقد أيقظ شعور رجل فقد والده بسبب منه ولم يكن فيه متعمدا، ولم يعرف بفقده، وأيقظ في جسمه المتهالك كل شيء نابض بالحياة، وأيقظ كذلك في نفوس الأطباء والممرضين وكل أفراد عائلته شعور الغبطة والسرور لما رأوه فيه من قوة، و"حيل" كان مكنونا في خبايا جسمه، وصار الجميع ممتنا لهذا المطر الذي أيقظ أحمد من سباته، وبلّه من هذا الوباء القاتل، فأبعدوا عنه قناع الأوكسجين، وأسلاك جهاز قراءات بارومترات القلب، ونزع من اصبعه جهاز "الأوكسيميتر"... حرك يديه، وساقيه. ابتسم بوجه الأطباء الذين هنؤوه بشفائه وبسلامة التقارير للمرة الثانية التي جاءت من بغداد حاملة البشرى، كانت ابتسامته حزينة جدا، وكان أفراد عائلته ينتظرون خروجه أو الدخول عليه، ليهنئوه بوجوه باسمة لا حزن فيها على الحاج الذي انتقل إلى العالم الآخر خشية أن ينتكس أحمد مرة ثانية، بالشفاء. أوصى أنمار كل أفراد عائلته أن لا

يخبروا والدهم بموت أبيه، جدهم، وقال لهم إن سأل اتركوني أنا أجيبه عن سبب عدم وجوده بيننا.

سألته الجدة وهي تمسح دمعة سالت على خديها المغضنين كليمونة ذابلة:

– بماذا تجيبه لو سألك؟

فكر أنمار في وقت لا يحتاج إلى التفكير، سحب نوال من يدها، وانتحى بها جانبا، تحدثوا بكلام يشبه الصمت، بعد فترة عاد إلى عائلته. قال بنبرة حادة وواثقة أعادت له حيويته التي كاد يفقدها:

– كلكم يجب أن تعودوا إلى البيت، سنبقى أنا ونوال فقط لكي لا يعرف أبي بموت جدي، أما إذا رآكم فإنه سيسأل.

كان أشد ما يخشاه هو منعهم هو وشقيقته من رؤية والدهم الذي شفي من المرض، وقد كان ذلك هو ما حدث، فقد منعوا من زيارته، قال الطبيب الأول له وهو يهنئه بسلامة والده وشفائه، ويهنيء نوال بشفائها:

– انتم تعلمون أن الكرفانات يرقد فيها المصابين بكورونا، ولا أريد أن يعاد على نوال هذا المرض، إلى الآن لم يتأكد الطب من تكرار الإصابة، ووالدكم يبقى إلى يوم غد لأجل فحوصات كاملة يحتاج لها، وسيخرج يوم غد.

شكر أنمار ونوال الطبيب، فيما لوحا بأيديهما من خلف زجاج شباك الغرفة التي يرقد فيها والدهما، حرك يده لهما، ابتسم لهما ابتسامة فرح وسرور، فقد كان يسر لمرآهم سوية بعد استشهاد أخوهم قبل أكثر من شهر.

قال الطبيب:

– نحن نهب الحياة لمن حياته مهددة بالفناء، شكرا لكم أعزائي.

وهم في طريقهم إلى الخروج من المستشفى، كان أنمار يود الحديث مع نوال عن قصة حبها لضياء زميله وزميل نوال في الكلية، وحب ضياء لها، إلّا أنه أحجم عن ذلك، وعندما وصلا إلى الشارع أوقف سيارة أجرة وركبا فيها، جلس هو قرب سائقها، وجلست نوال على المقعد الخلفي للسيارة.

كان ضياء قد علم برقاد نوال في المستشفى للاشتباه بها وبعائلتها بالإصابة بوباء كورونا، وعرف بموت جدها، وإصابة والدها، إلّا أنه لم يجرؤ على الذهاب إلى المستشفى خشية أن يسألوه عن العلاقة التي تربطه بالعائلة وهو ما يخشى منه، وعندما علم بمجيء صديقه أنمار إلى المدينة، اتصل به بالمحمول وسأله عن أوضاع العائلة الصحية، شكره أنمار، وسد المحمول بعد أن تحدثا عن بغداد وساحات الثورة.

كان ضياء شابا حنطي البشرة، فارع الطول، ضخم الجثة بعض الشيء، أسود العينين الواسعتين، يقرأ كثيرا لماركس القديم ولا تعجبه الأحزاب الشيوعية وتطبيقاتها المعاصرة، وهو زميل أنمار أيام الدراسة المتوسطة والإعدادية، وهو قومي الاتجاه، يرى في اجتماع القطاع العام والقطاع الخاص هو السبيل لتطور المجتمع العراقي، قبل في كلية التربية في المدينة كما قبلت نوال بعده بسنة، وبنفس الاختصاص، وضمتهم ساحة الثائرين بخيمة واحدة لأنهم من كلية واحدة مع بعض الزملاء. التقى بصديقه أنمار في يوم ما في خيمتهم، سلم عليه وعرف علاقته بنوال التي وقع بحبها ووقعت هي بحبه، عرف أنمار هذا الحب، لم يتحدث بكلمة، قال مع نفسه لنتركهما فهما في عمر ناضج لا يحب المراقبة.

تذكر كيف إنهما كانا، نوال وضياء، في خيمة الجامعة بعد أن عاد والدها من سفره لتلك الدولة المجاورة، وكانت أخبار الثورة هي الطاغية على كل أخبار. كانت شاشات التلفزيون تعرض مشاهد عن ضرب المتظاهرين في ساحة الخلاني، بعدها مباشرة نقل التلفزيون أخبارا عن الصين، وخبرا عن تشكيل خلية الأزمة في العراق. قالت نوال، التي مثل أخيها أفكارها قومية، لضياء:

– هل كان هذا وباء؟

رد عليها ضياء:

– ربما. وقطع كلامه صوت المذيع في التلفزيون الذي ينقل أخبار الوباء في إيران، وعدد من الدول.

أكمل ضياء حديثه الذي بدأه:

– لقد اقترب من العراق، بل هو فيه ما دامت الحدود مفتوحة.

قالت نوال وهي متجهمة الوجه وقد غادرتها الابتسامة الجميلة المرسومة دائما على شفتيها:

– كان والدي هناك، ويوم أمس عاد منها.

سألها ضياء:

– وماذا يعني هذا؟

قالت ونبرة صوتها شابها بعض التوتر:

– أقصد انه تخلص من هذا المرض بالعودة إلى العراق.

سألها بعد أن رفع عينيه من شاشة التلفزيون والتفت لها وهي تجلس على كرسي جنبه:

– هل تظنين إن العراق سينجو من هذا الوباء؟

قالت وما زالت تأكل من تفاحة حمراء حصلت عليها قبل ساعة من زميلة لها:

– لا أظن ذلك، فحكومة البلد لا تغلق الحدود الشرقية، والتجارة قائمة، والزوار يأتون ويذهبون وكأن كل شيء لبن بلبن.

صاح زميلهم بلال من مكانه، وكان متأثرا بنظرية دارون التي فهمها على أن أصل الإنسان قريبا من أصل القرود، وليس القرد جد الإنسان، وما زال العلماء يبحثون عن الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان، وهو عنيد في فكره هذا، ويحفظ كل أشعار المعري، وبعض أشعار بشار بن برد، بعد أن حكّ جلدة أنفه براحة يده، وهي عادة لزمته منذ الصغر:

– سيأتينا المرض لا محالة.

كانت نوال مضطربة إلى حد ما، إذ بدأ عليها الاضطراب، وكأن هذا الاضطراب كائن حي يعيش في جسدها، وينهش من لحمه، ويمتص دمه، وكانت تخفيه عن زملائها. كانت مضطربة بشأن والدها الذي عاد من إيران، ولكنها كانت تخفي هذا الاضطراب أمام ضياء وزميلاتها وزملائها الآخرين المتواجدين معها في خيمة الجامعة. كان رحمن، وهو من نسل النبي إلّا أنه أكثر انفتاحا من عائلته حيث أن اثنين من إخوته يدرسون في الحوزة في النجف، وهو يدعو إلى اللبرالية، ويقول أن لا

تناقض بين الدين والعلم، وفي الوقت نفسه يقول القرآن ليس كتاب علم، وهو زميلهم في الجامعة ومن لجنة التظاهر في الجامعة يقرأ في أحد الكتب وهو مستلق على فراشه، كان الكتاب مطلوبا منه في الكلية، من ضمن المقرر، فجأة أغلق الكتاب ونهض من الفراش وهو يقول:

– صدقني إن كل البلدان فيها هذا الوباء، وقد أخبرني صديقي الذي في أمريكا أن الوباء قد أصاب بعض الأمريكان، وأصاب الانجليز، والألمان، والفرنسيين.

رد عليه ضياء بشيء من الاطمئنان:

– إذا كان قد اجتاح العالم يكون جائحة وعلينا تجنب الوقوع في مخالبها.

دخل عليهم الفرّاش رزاق واشترك في الحديث دون مقدمات، قال لهم:

– الحرمل، والبخور، خير دواء لهذه الكورونا.

نظر إليه جميع من في الخيمة، بقي صامتا لا يقول شيئا آخر عندما شاهد وجوه الطلبة مكدّرة، وفجأة أنطلقوا في ضحكة عالية ومستمرة، فما كان من رزاق إلّا أن يخرج من الخيمة ويجلس على كرسيه المعهود.

كانت السماء ترسل رذاذا من المطر وترشه على رؤوس من في الساحة بعد ظهر أحد الأيام التي أشرقت فيها الشمس، فكان رذاذ السماء

يختلط وأشعة الشمس فبدأ من بعيد قوس قزح الذي رسم كطوق ملون في بداية شارع الحبوبي من الغرب، من بعيد، وكان الزملاء الذين في داخل الخيمة قد خرجوا وهم يرون تلك الألوان الجذابة، والجميلة، التي رسمها هذا القوس بحرفية تامة. قال رحمن:

– من يعرف كيف ينشأ هذا القوس؟

رد بلال طالب في المرحلة الثالثة بإختصاص الفيزياء:

– هذا ينتج من انكسار الضوء داخل قطرة المطر فيتحلل إلى ألوانه الأصلية، وأول لون هو اللون الأحمر، واللون البنفسجي آخر هذه الألوان من الداخل.

سألت نوال مستفسرة:

– ولماذا سمي بقوس قزح؟ ولماذا قزح؟

أجاب بلال بثقة:

– هناك أقوال كثيرة إلّا أن أطرفها هو أن قزح هو اسم الملك الموكل بهذا القوس.

وضحك من قوله، وضحك الزملاء الآخرين.

قالت نوال وهي تبتسم:

– هل وصلت الملائكة إلى ظاهرة طبيعية كل يوم نرى حدوثها؟ لقد كان في الحضارات القديمة مثل حضارة السومريين، والبابليين، والآشوريين، وكذلك الفراعنة، والكنعانيين، آلهة لكل ظاهرة طبيعية، أو أمر كبير، وعندما جاء الإسلام أخذ الفكر الإسلامي من تلك الحضارات هذه الآلهة وأطلق عليها أسم الملائكة، فكان ملك للموت، وملك لحمل الرسالة، وآخر ملك للنار، وغيره للريح، وبعدها جعلوا الإمام علي مسؤولا عن حركة الريح، إنه شيء غريب.

قال ضياء:

– لا غريب إلّا الشيطان، والشيطان أيضا مَلك، وكان أحد الآلهة في كل الحضارات التي سبقتنا.

سيطر صمت قصير بين الزملاء كصمت القبور في ظهيرة يوم قائظ. وانمحى قوس قزح من مكانه في السماء جهة الغرب، فيما انغمس تفكير نوال في سفرة والدها وعودته منها، وإيران، والوباء. كل ذلك شوّش على تفكيرها فأحاله إلى شيء غير مستقر، ومضطرب، أتلفَ الراحة النفسية، وأخذ من راحتها الجسدية الكثير، كانت تشعر بضيق في صدرها، إنها

"ضكة نفس"[1]، وليس سوى ذلك، كما فكرت مع نفسها، ولكي تجدد حيويتها، ونبض قلبها الذي راح يقل شيئا فشيئا، وراء كل هذا تقف صلابتها، وفي الوقت نفسه، قلبا غضا، طريا، عاطفيا في حبه لعائلتها، تحركت ماشية في شارع الحبوبي بلا هدى، أو غاية تسير نحو تحقيقها، حيث انغمست في الجموع الغفيرة وقت المساء.

انتبه ضياء إلى ابتعاد نوال من المكان الذي وقفوا فيه. كانت تبتعد في زحمة الناس في شارع الحبوبي، مثل الممثلة صوفيا لورين عندما اندسّت بين الناس في أحد الأفلام التي شاهدها قبل سنين. فيما كان صديقه بلال يشرح له طريقة تصنيع القنبلة الدخانية التي يستقبلونها دائما من القوات الأمنية، ويستشهد فيها الشباب، وعندما رآه غير منتبه له، وقد شردت عيناه في زحمة الحبوبي، خلف نوال التي ضاعت بين الجموع، وهي تعلم أن عيني ضياء ترمقانها بنظرة فيها كل حبه، وهيامه بها، كما لو انه كان يحدد مقاييس جسمها، قطع ضياء حديثه ودخل الخيمة ليعود إلى كتابه الذي تركه قبل ساعة، بعد أن هزّ رأسه هزة بسيطة كأنما يعلن إحتجاجه على شرود ذهن ضياء وهو يتحدث له.

١ - ضكّة نفس: تعبير عامي يراد به معنى الانزعاج، بسبب ضيق في الصدر.

شردت نوال من زملاء الكلية، وأرادت فسحة من الوقت تبقى مع نفسها الملتاعة، فقد شغلها سفر أبيها إلى إيران كثيرا حتى أنها فكرت أن تهاتف أنمار وتفضي له بكل ما ينتابها من مخاوف، هذه المخاوف التي نزلت على صدرها فتركته ضيقا رغم اتساعه، وما معروف عنها من فكاهة دائمة. كانت تسير بلا هدى، حتى أن الكثير من الناس اصطدموا بكتفها الذي أخذ يؤلمها من كثرة الأصطدامات، والصدمات المتتالية. قررت مع نفسها أن تعود أدراجها وتستأذن زملائها في أن تعود إلى البيت. دارت على عقبيها وعادت من حيث أتت، واستأذنت من زملائها وأسرعت الخطى متجهة إلى بيتها كأنها مطاردة من شيء ما خلفها. لم تكن تتلفت إلى أي جهة، كانت تنظر إلى أمام، وهي مشدوهة البال. أخرجت محمولها من حقيبتها اليدوية دون أن تقف، تلفنت لأخيها أنمار. المحمول يخبرها ان الهاتف الآخر خارج التغطية، كررت الأمر عدة مرات دون جدوى، أغلقت المحمول وأعادته مرة ثانية إلى حقيبتها. كان وجهها قد تعرّق كثيرا من سرعة جريها، وأزداد وجيف قلبها، فقد كان خارج سيطرتها. كانت قد دخلت الزقاق الذي يقع عليه دارهم، وكان دارهم تبني اللون وحديث الطلاء، وكانت رائحة مجاري الزقاق المخفية تحت بلاطه لا تطاق، فهي تحتاج إلى من يسلّكها، هكذا فكرت، وبسرعة

أخرجت مفتاح باب الدار وأدارته فأنفتح أمامها. دخلت بسرعة وإلتقت بأمها، سألتها عن أبيها، أخبرتها أنه لم يعد إلى الآن، أخذ جدها للطبيب. كانت هذه الكلمة قد لطمتها لطما.

سألتها أمها عما تشعر به، هل هي مريضة؟

ردت عليها قائلة:

– لاشيء يذكر.

قالت جدتها وهي تجلس متربعة على التخت الخشبي وبيدها مسبحة سوداء ذات مئة حبة وحبة:

– سيعودان من الطبيب، وجدك لا شيء فيه، هي حمى فقط، لقد دعا والدك في حضرة الأمام الرضا له بالصحة والعافية والعمر الطويل.

دخلت غرفتها، لم تلتفت إلى لون جدرانها الزهري، أو إلى هندامها في المرآة المعلقة على الجدار، بل رمت حقيبتها على سرير نومها وأخرجت محمولها منها، تلفنت لوالدها، لم يرد رغم استمرار النغمة، شعرت أن الادرينالين قد تصاعد مستواه في جسمها، أعادت الاتصال بأخيها سلام في المحل أخبرها إن والدهم لم يعد إلى الآن من الطبيب، اتصلت مرة أخرى بأبيها، فتح والدها المحمول وكلمها، سألته أين هو؟ رد عليها إنه في المستشفى، سقط الهاتف من يدها، انهدت على السرير، كان والدها

يصيح عبر المحمول: ألو، ألو، ألو، بعد لحظات سألته عن السبب، قال لها إن جدهم مصاب بالكورونا، وهو كذلك، وسيرقدان في المستشفى، والزيارة ممنوعة، وأغلق المحمول.

***

الفصل/ ١١

مالت الشمس إلى المغيب، لم تصل بعد إلى درجة الغروب الكلي، بل هي في طريقها إلى النزول من علوها في سمت السماء إلى أن تغيب كليا عن صفحتها فتحيلها إلى سبورة سوداء نظيفة في صف لا أحد فيه، كعادتها منذ ملايين السنين، فيحل الظلام الكحلي، ويصل التيار الكهربائي إلى بعض المناطق، فتنار البيوت، والشوارع، والأزقة، وتظل مناطق أخرى لا كهرباء فيها، تعيش في ظل ضمائر أصحاب المولدات التي ما زالت تعمل من زمن الحصار الظالم على العراق، وقد بنى بعض العراقيين آمالهم على الاحتلال وقالوا أنهم سيعيدون المنظومة الكهربائية، بعد أن حطموها في قصفهم المستمر، إلّا أنهم، والكثير من دول الجوار، تعاهدوا ألّا يهنأ الشعب العراقي بالكهرباء طيلة حياته. في ذلك الوقت، قال علاء الطالب الجامعي في المرحلة الثانية من قسم التاريخ، وهو يشارك زملاءه الحديث عن وباء كورونا، ودور العلم في الخلاص منه، وترك الخرافات التي انتشرت عند بعض العوام من الناس، وقد سمع أخبار الوباء وعلاجه، وكيف أن الخرافات بدأت تنشط داخل

المجتمع، من صديقه ضياء، لأنه كان يشاهد الدوري الانكليزي لكرة القدم:

– يروى إن سرجون الأكدي قد بنيَ له ضريحا، وأخذ الأكديون يزورونه، ورويت عنه الروايات، وحكيت الحكايات، حتى أن السوالف[١] التي "تسولفها" لنا جداتنا عندما كنا صغارا تحمل في ثناياها بعضا من أسطورة سرجون الأكدي، وكيف أنه بعد أن ولد، وضعته أمه في "گـفه"[٢]، ورمته في النهر من مدينة تقع في سوريا، ووصلت "الگـفة" الطافية إلى أحد الذين يسقون البساتين قرب مدينة أور، فانتشله من النهر، ورباه، ثم أصبح ملكا. وقد سرقت التوراة هذه الأسطورة وجعلتها لموسى النبي، وإذا كانت هذه الحكاية، أسطورة، أو كانت واقعا حقيقيا حدث كما قالت الإسطورة، فإن هناك الكثير من مثل هذا الأكدي، أو مثل ذاك اليهودي، وتعاد هذه الحكاية مرة أخرى بصيغ أخرى في زمن العلم، أو غيره، حيث يحكى عن سيد بني عليه ضريحا، وأخذ الناس يزورونه، ويقدمون له النذور، والهدايا، فانتعشت عائلته إقتصاديا، حتى آن أحد أفرادها الذي كان في دولة عربية وعاد إلى العراق لإستلام

١ - السوالف:السالفة من السلف، أي الحكاية التي تحكى عن السلف،اجدادنا الأوائل.

٢ - الگفة: هي طوف مصنوع من البردي، أو القصب، ومطلي بالقير تستخدم في النقل النهري.

حصته من أموال الضريح إنقلبت به السيارة ومات، فكان كمثل التي يضرب بها المثل الشعبي القائل "لا حظت برجيلها ولا خذت سيد علي"[١]، صاحب هذا الضريح كان طفلا عندما مات، فبنوا عليه هذا الضريح لكي يكون مزارا تقدم فيه النذور والهدايا، في الوقت الذي كانت الأمية منتشرة في العراق، وتفشي الخرافات بين أفراد مجتمعه، وراحت الناس تبحث عن شيء تحمّله معاناتها، ومآسيها، وقهر الحكومات التي توالت للسيطرة عليه، فكان أن امتلأت المحافظة بالسادة، والعَلَويات[٢]، حتى وصل الحال عند عائلة سيد كبير السن إلى جعل مغيسله مزارا فشيدوا عليه بناية، وعلى العربيد[٣] الذي كان يعيش في بيته، أو هكذا كان يقال، وقد ادعت عائلته أنه كان ضمن موكب التشييع، فداسه أحد ركاب الدراجات الهوائية، ففطس، وأخذت تزار هذه الأضرحة، وتقدم لها النذور، وفي زمن كورونا ما زال العامة يزورونها وكأن شيئا لم يكن.

قال ضياء بثقة:

١ - لا حظت برجيلها ولا خذت سيد علي: مثل يضرب لمن ضاع منه أمرين كان يفضل احدهما.

٢ - العلّويات: النساء اللاتي من نسل الامام علي بن أبي طالب.

٣ - العربيد: ذكر الحية عند العامة.

– الناس ترى إن الإنسان عندما يولد فهو يولد وقد كتب تاريخ حياته على جبينه من لحظة الولادة إلى أن يموت، والمعممون يغذّون هذه الخرافة، وعليكم انتم الذين تدرسون التاريخ تصحيح هذا الاعتقاد السائد بين الناس.

خرج بلال من الخيمة وبيده الكتاب الذي كان يقرأ فيه، فإلتمع ضوء النهار على جبهته، وقال بصوت جهوري أراد أن يصل للجميع:

– ورد في رواية "زوربا اليوناني" لكازنتزاكي عن هؤلاء الخرافيين: (كان على المركب يونانيون، خبثاء كالشيطان، ذوو عيون كاسرة، وعقول تساوم على البضائع التافهة، وثرثرة في السياسة والمخاصمات، وبيانو غير متناسق الإلحان، ونساء شريفات وخبيثات، وكان يسود ذلك جو من البؤس القروي، إن الرغبة لتتملكك في أن تأخذ المركب من طرفيه وتغرقه في البحر، وتهزه بعناية كي تسقط عنه جميع تلك الحيوانات التي فيه – من رجال، وفئران وفسافس– ثم تعوّمه من جديد مغسولا، طريا، فارغا)، وهذا ما مطلوب منا نحن الطليعة المتقدمة، والمثقفة. نحن ننوء تحت حمل ثقيل، والناس تعتقد ما تريد أن تعتقد به، أما الإنسان الواعي فعليه أن يضع كل حالة في عقله هو ويفكر فيها ليصل إلى نتيجة يرى فيها الصواب الواقعي.

قالت سناء التي وصلت الخيمة قبل نصف ساعة وقد ارتدت الكِمامة:

– علينا أن نعتمد على عقولنا ولا ندع الآخرين يفكرون بدلا عنا، العقل عقلي فلماذا أسلمه لغيري ليفكر بدلا عني؟

رد ضياء قائلا:

– تاريخ الإنسان المكتوب على الجبين، وهو قول مجازي، يصطدم مع إرادة الإنسان وحريته في فعل أي شيء، كيف تستقيم حرية الإنسان مع ما مكتوب على جبينه؟

وضحك للوصف الذي أطلقه بلال على مثل هذا التفكير بالتفكير البائس، فيما ابتسم محمود وهز يديه ودخل الخيمة، كان محمود ينظر إلى الكون كقصيدة عصماء، بدأ بقصيدة، وسينتهي بقصيدة، لذا غلب عليه أسم الشاعر.

في ذلك اليوم الذي اشترك طلبة الجامعة بهذا الحوار الذي دار على أعتاب كورونا، وقد غابت عنه نوال لأنها عادت إلى البيت مسرعة، وقد تلفنت لأخيها سلام، وعرفت ما حل بوالدها وجدها، وعلمت الحاجة أم أحمد بإصابة زوجها الحاج ريحان بهذا الوباء، طلبت من زوجة ابنها أن يعودوا به إلى البيت، وأن يزوّروه ضريح السيد، أو يذهبا في الغد إلى السيد ليكتب له خرزا، وعندما سمعت نوال هذا الطلب، امتعضت،

وغضبت، وأخبرت جدتها وأمها بأن أبيها أيضا مصاب، ولا ينفع معه لا الدعاء، ولا السيد، ولا هم يحزنون.

اندهشت الجدة لسماعها ما قالته نوال، واتسعت عيناها، وفغرت فاهها، وكذلك زوجة ابنها، وبان على وجوههن الامتعاض، فصمتن عن قول كل شيء، وتمدد الصمت إلى كل مرافق الدار، ودخلت نوال غرفتها وهي مهتاجة، سمعت سلام يدخل الدار، وهو صامت لا يعرف ماذا يقول، خرجت نوال من الغرفة مكدّرة الوجه، والدموع قد وجدت طريقها إلى خديها الناعمين، وما زالت شفتاها ترتعشان، بل كل جسمها راح يهتز كأن الحمى قد تمكنت منه. جدّتها وأمها لا تتفوهان بشيء، بل أسكتتهم المفاجأة. سألت نوال أخوها سلام عن جدّها وأبيها، فأخبرها بأنهم في المستشفى، وأن والده طلب منه أن لا يأتي للمستشفى.

صرخت أمه كالملدوغة:

– وماذا تنتظر، يجب أن تذهب إلى المستشفى فورا.

ونهضت من الكنبة التي كانت تجلس عليها، فنهضت ابنتها، ووقفت قبالتها وهي تسألها بنبرة حادة وجريئة:

– إلى أين؟

ردت عليها قائلة بكل حرارة الغضب الحذر في نفسها، وبصوت يشبه الصراخ:

– إلى المستشفى، أتريدين أن يبقى زوجي وعمي في المستشفى ونحن هنا "نكرز"[١] حب الشمس؟

أعادت نوال أمها إلى مجلسها، بعد أن نزعت عنها عباءتها، قائلة:

– ليس هذا بالحل الصحيح، علينا أن نتصل بوالدي أولا، ونستعلم منه الأخبار.

قالت الحاجة أم أحمد وما زال صوتها يتعالى بالبكاء:

– لقد اتكلا على الله والنبي والأئمة وذهبا إلى الطبيب، لا تخافوا عليهم، إنها "نشلة"[٢] وتطيب بجاه الأئمة.

كان الجد الحاج ريحان، وزوجته الحاجة، وابنهما أحمد، وزوجته، ناس يشتركون في النزعة الروحانية، على العكس من أبنائهم، أنمار، ونوال، وسلام، الذين يشتركون في نزعتهم الجديدة من الأفكار والمعتقدات.

١ - نكرّز: نأكل المكسرات ومنها بذور (حب، أو لب) عباد الشمس.

٢ - نشلة: فلاونزا.

عادت أم أنمار إلى مجلسها القلق، فيما عمّتها ما زالت تنشج باكية وهي بملابسها السود، قال سلام:

– سأتصل بوالدي في المستشفى.

ومن المستشفى جاء الرد من خلال صوت أحد العاملين فيه بجهاز المحمول العائد لأحمد:

– إنهما تحت الأجهزة الطبية، وأقفل المحمول.

خيم الصمت على العائلة، كل ينظر إلى الآخر نظرات حائرة، محملة بالأسئلة. سألت الجدة سلام قائلة:

– من الذي أجابك على محمول والدك؟

ردّ سلام:

– أحد العاملين في المستشفى.

وماذا أخبرك؟ قالت الجدة.

– أخبرني أن جدي وأبي تحت الأجهزة الطبية؟

– أي أجهزة؟ سألت الأم.

– لا أعرف.

كان سخان الماء الذي يُرى من خلف الشباك الذي يطل عليه الجالس في الهول الكبير، قد بدأ يأزّ ويتصاعد منه البخار فينفثه إلى الخارج

بواسطة انبوب التفريغ الموضوع عليه والذي يصل إلى أعلى من خزان ماء الدار. قالت نوال:

– ربما عطل المنظّم الحراري للسخان.

قام سلام وقطع التيار الكهربائي عنه، وعاد إلى مكانه، وظل يدور في الهول بلا هدف مثل ثور هائج، يهوش في زريبته بلا بقرة يمتطيها، وقد شحبت سحنته، ويبست شفتيه، صار كئيبا، فملّ نفسه.

كان في الغرفة الصغيرة المركونة في الجهة الشمالية للدار وقد شرع بابها، ثمة أكثر من لوحة تشكيلية مثبتة على جدرانها. كانت غرفة أنمار قد صبغت جدرانها بلون مصباح الفلورسنت الأبيض[1]، وكانت ثمة لوحة رسم فيها موضوعا انشائيا، رسمه أنمار في الكلية، يمثل منظرا طبيعيا يشع الحزن في نفس من يراها، سماء سوداء ملبدة بالغيوم فوق نهر جاف. وكان الزقاق هادئا، كما الشارع.

وعاد الجميع إلى الصمت المضطرب الحواف. بكت الحاجة بصوت متقطع، وشاركتها أم أنمار البكاء، إنما بصوت عال، فضجت الدار ببكائهم. نهضت نوال، وقبل أن تحرك أقدامها إلى جهة غرفتها لتتصل

١ - مصباح فلورسنت: نوع من المصابيح بشتى الالوان واهمها لون النهار.

بأخيها أنمار في بغداد، رن جرس الباب، فإمتزج صوت البكاء مع صوت رنين الجرس الذي ملأ فضاء الدار، سكت البكاء، اتجهت رؤوس الموجودين في الهول نحو باب الدار. نهض سلام وتوجه نحو الباب الحديدي، وفتحة، ودخلت المفرزتين الطبية والأمنية إلى داخل البيت وكأنهم يبحثون عن هارب من القانون، سقط في يد سلام والعائلة، لم يستطيعوا من قول أي شيء، أقفلت أفواهم الدهشة وكأن الطير فوق رؤوسهم، ارتجت العجوز من الأعماق وكادت أن تسقط مغمي عليها لولا تدارك كنتها وأمسكتها عن السقوط، وصمت سلام دون أن يجرؤ على قول شيء فقد شدّته المفاجأة، فيما نزّ العرق من علباته[1] فبلل ياقة قميصه فإلتسقت بها، ومن أبطيه. وتاهت نظرات نوال بين أهلها والمفرزة فلم تستطع من قول أي شيء، وظلت عيناها تدوران بين أفراد عائلتها مشدوهة وهي لا تفعل شيئا، بكت، وولولت، وأنّت جدتها. قال أحد أفراد المفرزة الصحية:

– لا خوف عليكم، انتم عائلة الحاج ريحان كما أخبرنا المختار، وجئنا لنأخذكم معنا إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات الطبية، صدقوني

١ - علباته: رقبته من الخلف، وهي عصبة في العنق.

لا شيء يخيف، انتم ملامسون للمريض وعلينا أن نتأكد من خلوكم من الفيروس، أربعة عشر يوما وتعودن إلى بيتكم مكرمين ومعززين.

تشجعت نوال وقالت:

– أخي ولماذا تأخذنا نحن؟ هل نحن مصابين بالكورونا؟

قال الممرض باسما:

– للتأكد من ذلك لأنكم لامستم الشخص المصاب وهو والدكم.

صاحت الجدة مهتاجة وهي باكية:

– أنا لا أذهب، أموت هنا ولا أذهب خارج البيت، أنا لست مريضة بمرض "أبو زوعة"[1]، ولا زوجي، ولا حتى ابني.

صاح أحد أفراد المفرزة الصحية:

– حاجّة ليس هذا مرض أبو زوعه، إنه أقوى منه، انه كورونا يا حاجة.

ردت الحاجة عليه بعنف:

– لا كورونا ولا أي شيء.

صاح الرجل نفسه وهو يبتسم:

– حاجّة، لماذا لا تريدون أن تعترفوا بالحقيقة، ألأنّها مرة؟

١ - أبو زوعة: اسم يطلقه العامة على مرض الطاعون.

قالت نوال للمفرزة الطبية بعد أن كادت أن تفقد سيطرتها على العائلة:

– رجاء أخرجوا خارج الدار وسنتهيأ للذهاب معكم.

في الدار دار نقاش بين نوال وعائلتها، وقد سكت سلام ولم يتفوه بأي كلمة، أخذ يتمشى في الهول، ذهابا وإيابا، وقد جزّ على أسنانه غضبا، وهو يتصبب عرقا على الرغم من برودة الجو، وعندما لم تجد أذان صاغية عندهم قالت لهم: سأذهب أنا لوحدي وأترككم مع المفرزة التي شتجبركم على الذهاب إلى المستشفى.

قالت لها أمها:

– وجدّك، وأبوك ماذا يقولان؟

ردت عليها غاضبة:

– هم الآن في محنة المرض، ولا يفكرا بنا، يجب أن نتخذ القرار لوحدنا نحن.

ثم تابعت القول مع نفسها: الآن البقاء على قيد الحياة هو إنتصار لنا على هذا الفيروس.

نهضت الجدّة ووضعت عباءتها على رأسها وتحركت نحو باب الدار، فيما سبقها سلام وفتح لها الباب.

كان أهالي الزقاق ومعهم المختار وأبو غائب وبعض أهالي الشارع متجمهرين قرب باب الدار في الزقاق الضيق الذي يقع عليه دار الحاج ريحان، عندما خرجت المفرزة الصحية والأمنية وقد حاول أحد أعضائها أن يفرق هذا الحشد المتجمهر قرب باب الدار، فتفرقوا، وبعد لحظات عادوا إلى التجمع حول المفرزة الطبية الذي راح أحد أفرادها يشرح للآخرين خطأ تجمعهم قرب دار المصاب، فأنسل بعض الجيران الواحد بعد الآخر حتى لم يبق سوى المختار الذي استأذن المفرزة الأمنية وذهب خارج الزقاق ووقف قرب دكان أبي غائب ينتظر، حاله حال الناس الآخرين، ينتظر خروج العائلة وركوبها في الإسعاف، لأنه كان يفكر أنه من العيب، وعدم المقبولية الاجتماعية، أن يكون هو ضمن المفارز التي تحجر على عائلة الحاج ريحان، وتأخذها إلى المستشفى، وكأن الأمر يحسب بالمقبول وغير المقبول، لا بالصحي وغير الصحي.

قبل أن يذهبا لضريح السيد للدعاء للحاج ريحان، كانت المفرزة الطبية، والمفرزة الأمنية قد وضعتهم في سيارة الإسعاف جميعا ومضوا إلى المستشفى لا يوقفهم شيء.

***

الفصل/١٢

النصوص هي حروف وكلمات مسطّرة على شيء ما، ومنه الورق، إن كان هذا الورق هو الورق الأبيض الحقيقي، أو كان الورق الافتراضي الموجود في الحاسبة، وإن كانت هذه النصوص هي نصوص دينية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو ثقافية، أو صحية، فعندما تسكت هذه النصوص، وتختبئ في المجهول حياء، وخجلا، وكأن يدا قوية أجبرتها على هذا الاختباء، والغياب، ولا يكون لها تأثيرا يذكر، لم يبق أمام الناس سوى العِلم، ومختبر التجارب، الذي يدور فيه هذا العِلم، وكذلك من يقومون عليه، ويعملون فيه، لأنهم أصحاب عقل يعمل لا عقل صامت، وساكن. فقد قطع هذا الوباء الأواصر الاجتماعية كافة، وكان مثل الرجّة التي تحدث في ماء النهر، فهي تقطع "زرة"[١] الأسماك، فيتشتت الكل، وينتشر في الاتجاهات كافة. هذا الوباء قطع حب المحبين، وهيام الهائمين. وقطع السبيل أمام كلمات الغزل الرقيقة، وأمام اللمس،

١ - زرّة الأسماك: وهي أسراب الأسماك في الماء.

والتقبيل. قطع السبيل أمام كل لقاء بين حبيبين. وقطع لعب الأطفال فيما بينهم في الشوارع والأزقة. وقطع هذا الوباء زيارة الأقارب، والمعارف، فأحال اللقاءات إلى اتصالات بالمحمول، فكان هو الوسيلة الوحيدة لهم للاتصال، فضلا على الأنترنت. وقطع هذا الوباء تلاميذ، وطلاب المدارس، والمعاهد، والكليات من الدراسة، فبقوا في البيوت. قطع الزيارة والتجارة بين البلدان، وأخيرا بيع النفط، لأن الدراجات البخارية، والسيارات، والطائرات، والبواخر، والمعامل، والمصانع، لم تعد تستهلكه، لتوقّفها عن العمل، وهو لا يُشرب مثل الماء.

لقد كثرت المشاكل بين الأزواج، بين امرأة تعد البيت الذي تسكن فيه هو عالمها، وهي الملكة المتوّجة عليه بلا منازع، وبين زوج راح يزاحمها على هذه المملكة، ويخلق المشاكل ليتسّيد عليها، فبدأت النار المختبئة في جمر علاقتهم تتأجج، و"تثگب ثگب"[1]، ولا يطفؤها الأبناء وكثرة، أو قلة عددهم، أو تاريخ علاقتهم، أو قصة حبهم. فيما جاء حديث مسؤول في وزارة الزرعة عن استيراد العراق للنبق بمبلغ ٩٩ مليار دور مثل الماء الذي صبّ على نارهم المتأججة، فأوقف، الزوج والزوجة

١ - تثگب ثگب": تتأجج النار عاليا.

في البيوت، "نكّـرتهم الماسخة"[١] إلى حين انتهاء النبق المستورد كدواء لكورونا.

كل شيء توقف، أما الذي لم يتوقف فهو الأمل الكبير للناس في المؤسسات الصحية ورجالها، على الرغم من تعبهم، وسهرهم، فهم ما زالوا الجنود المجهولين في هذه الأزمة، وكذلك أمل الناس التي تفكر صحيح بالعِلم ورجاله، وبالمختبر ورجاله، وليس لغير هؤلاء ممن يرتجى، أو ندعوه بدعوة من القلب. وما زالت الطبيعة كما هي، لم تتغير معالمها، فماء النهر عاد إلى زرقته. والناس كما عهدناهم يتحركون بشتى الاتجاهات. والشوارع مليئة بحركة السيارات والمارة. والأزقة قصيرة وغير عريضة. والدور كما هي أبوابها مغلقة على من فيها. والجوامع، والمساجد، ظلت قبابها زرقاء لازوردية، ومناراتها يرفع فيها الآذان. والأسواق مكتظة بالمتبضعين. وما زالت السماء كما كانت في السابق، متغيرة الألوان حسب الفصول. وساحة الحبوبي كما كانت بتمثالها الأصفر، وبشجيراتها، وعصافيرها الطائرة والحاطّة على الأشجار

١ - نكّرتهم الماسخة: نكّره: عراك، ماسخة: فاهية، بلا ملح، أي بلا سبب منطقي.

والتمثال. والمتنزه زاخر بوروده، وأزهاره، وألعابه، كما كان دائما، لم يتغير أي شيء بهذه المظاهر.

ما زال أنمار يذكر وقائع ما جرى لعائلته، ولأهل المدينة، ولسكان العالم، لقد أخذ منهم فيروس كوفيد/٩ الكثير، عندما صعد في سيارة الأجرة الذاهبة إلى بغداد وهي تقله إلى خيام المتظاهرين، المنتفضين، الثائرين، وهي أسماء لمسمى واحد هو الشباب الناهض. وكان ذلك اليوم أكثر إشراقا من بقية الأيام، والشمس تلهب كل من نزلت عليه كأنها تغسلهم من الفيروس. وكان نهار ذلك اليوم يعدّ بالكثير. فسماؤه كانت صافية، والناس متهللة الوجوه، كأنها في عرس، والسيارة تنهب الطريق نهبا كأنها لا تريد التوقف. وصلته مكالمة من صديقه واثق في تنسيقية ساحة التحرير، أن أحضر إلينا، لأنهم يعدّون لمظاهرة مليونية ستهز عروش أهل المنطقة الخضراء، وحكم عشيرتيْ آق قوينلو، وقره قوينلو[1]، والعشيرة الثالثة ما أعرف اسمها مع قوينلو. هكذا جاء في

١ - آق قوينلو، وقره قوينلو: (الخروف الأبيض) و (الخروف الأسود) قبيلتان تركمانيتان حكمتا العراق بين عامي ١٣٨٠-١٥٠٢م، والقبيلة الثالثة جعلها غير معروفة، لأنها كانت غير موجودة زمن ظهور القبيلتين، وفي هذا اشارة من الكاتب إلى ما ترمز اليه هذه القبائل.

الرسالة، وفهم ما المقصود بالعشيرتين اللتين حكمتا العراق في القديم، والعشيرة الثالثة.

تذكر أنمار، كما تذكرت نوال، في الوقت نفسه، كل ما جرى في الأيام السابقة، كأنه حلم مر عليهم في منامهم قبل الاستيقاظ بدقائق. لقد مات الحاج ريحان، كما مات شيخ عشيرة شرّاد، وملّاهم، وبعض كبار السن فيهم، والآلاف مثلهم. وشفي أحمد التاجر، كما شفي أبو غائب منه، وشرّاد القروي، كما شفي الآلاف مثلهم، ولم تصب نوال وعائلتها، ونجلاء وعائلتها، وبعض أفراد عشيرة شرّاد بهذا المرض، كما حدث للملايين مثلهم. لقد خرج العالم من هذا الوباء بالكثير من التضحيات على المستوى العائلي، والاجتماعي، والدولي. وظلت خيم الثائرين مزدانة بكل شيء قابل لأن يخلّد، بصور الشهداء، وبهتافات عالية النبرة، وبأشعار الشعراء الذين يتغنون بما قدم للوطن. ما زال الوباء باقيا، وتصل حرارة الجو الى ما فوق الخمسين درجة، وما زالت الكهرباء بعيدة عن العراق.

دخل محمود خيمة الجامعة المنصوبة في ساحة الحبوبي، وقد أغمض عينيه بعض الوقت لتتعود على الضوء القليل فيها، لم يجد فيها سوى بلال وهو يقرأ في كتاب ثخين، عرفه مباشرة، إنه كتاب أصل

الأنواع لداروين، لم يقل شيئا سوى أنه سلم على بلال وسأله إن كان داروين قد ذكر أن أصل الكون قصيدة؟ نظر بلال إليه شزرا وضحك بملء فيه، فيما مضى إلى لوحة الإعلان المركونة على مسند الرسم الخشبي، وقد وضع فيها إعلانا واحدا بموعد التظاهرة المليونية في العراق بعد أزمة كورونا موقعة من تنسيقية بغداد، ومهمّش عليه من تنسيقية الناصرية. تقدم نحو اللوحة. كانت اللوحة مصبوغة باللون الأبيض. أخرج ورقة كبيرة من جيبه كانت مطوية على شكل مربع، فردها كي يسطّحها، ثم علّقها على اللوحة بوساطة دبابيس ذات رؤوس ملونة. كانت الورقة مكتوبا فيها قصيدة "الكوليرا" لنازك الملائكة، وأنشد القصيدة بصوته الجهوري، فيه شيء من التمثيل، عن ظهر قلب:

(سكَن الليلُ

أصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنَّاتْ

فى عُمْق الظلمةِ، تحتَ الصمتِ، على الأمواتْ

صَرخَاتٌ تعلو، تضطربُ

حزنٌ يتدفقُ، يلتهبُ

يتعثَّر فيه صَدى الآهاتْ

فى كل فؤادٍ غليانُ

فى الكوخِ الساكنِ أحزانُ

فى كل مكانٍ روحٌ تصرخُ فى الظُلُماتْ

فى كلِّ مكانٍ يبكى صوتْ

هذا ما قد مَزّقَهُ الموتْ

الموتُ الموتُ الموتْ

يا حُزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتْ

طَلَع الفجرُ

أصغِ إلى وَقْع خُطَى الماشينْ

فى صمتِ الفجْر، أصِخْ، انظُرْ ركبَ الباكين

عشرةُ أمواتٍ، عشرونا

لا تُحْصِ أصِخْ للباكينا

اسمعْ صوتَ الطِّفْل المسكين

مَوْتَى، مَوْتَى، ضاعَ العددُ

مَوْتَى، موتَى، لم يَبْقَ غَدُ

فى كلِّ مكانٍ جَسَدٌ ينْدُبُه محزونْ

لا لحظَةَ إخلادٍ لا صَمْتْ

هذا ما فعلتْ كفُّ الموتْ

الموتُ الموتُ الموتْ

تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ

الكوليرا

فى كَهْفِ الرُّعْب مع الأشلاءْ

فى صمْت الأبدِ القاسى حيثُ الموتُ دواءْ

استيقظَ داءُ الكوليرا

حقْدًا يتدفّقُ موْتورا

هبطَ الوادى المرِحَ الوُضّاءْ

يصرخُ مضطربًا مجنونا

لا يسمَعُ صوتَ الباكينا

فى كلِّ مكانٍ خلَّفَ مخلبُهُ أصداءْ

فى كوخ الفلاّحة فى البيتْ

لا شىءَ سوى صرَخات الموتْ

الموتُ الموتُ الموتْ

فى شخص الكوليرا القاسى ينتقمُ الموتْ

الصمتُ مريرْ

لا شيءَ سوى رجْعِ التكبيرْ

حتّى حَفّارُ القبر ثَوَى لم يبقَ نَصِيرْ

الجامعُ ماتَ مؤذّنُهُ

الميّتُ من سيؤبّنُهُ

لم يبقَ سوى نوْحٍ وزفيرْ

الطفلُ بلا أمٍّ وأبِ

يبكى من قلبٍ ملتهِبِ

وغدًا لا شكَّ سيلقفُهُ الداءُ الشرّيرْ

يا شبَحَ الهيْضة ما أبقيتْ

لا شيءَ سوى أحزانِ الموتْ

الموتُ، الموتُ، الموتْ

يا مصرُ شعورى مزَّقَهُ ما فعلَ الموتْ).

بعد أن أنهى محمود قراءة القصيدة قال بلال وهو يؤكد حقيقة مؤمن بها كما يؤمن الكثير من الناس ذوي العقول الفعالة:

– وعلى الرغم من ذلك، ومن كوليرا نازك الملائكة، سيبقى الإنسان كما قال أرسطو هو الإنسان الناطق الوحيد في الكون، ولا ينافسه أحد، بوجود الإنسان الآلي الذي ينفذ كل ما يؤمر به، وجميع فعالياته تكون بإيعاز من إنساننا الناطق.

وافقه محمود بقوله:

– نعم، هذا صحيح.

تابع بلال حديثه:

– يا صديقي، داروين اكتشف أصل الإنسان، وأرسطو جعله الإنسان الناطق الوحيد في الكون، ولا يهمنا أسبقية الاكتشاف. فيما توجهت الماركسية نحو الأممية، وتوجه البعث نحو القومية، والصراع بينهما مستمر، وفي الحقيقة كل واحد يكمل الآخر. فالماركسية هي تجميع ما كان متجمع على الصعيد القومي، والقومية تعيش في بيئة إنسانية، تكاملية، وهو هدف الماركسية.

أكد محمود موافقته على آراء بلال وخرج من الخيمة.

كأن المدينة قد طعنت بخنجر مسنن، ليكون التأثير مضاعفا، وقد شفيت، الى حد ما، من ذلك الطعن المميت، ومن الجرح القاتل، بعد أن أخذ الكثير من الناس في طريقه الدامي، وها هي تحاول أن تقف على رجليها وهي تئن، وقد انتهى الشهر السابع الذي مر عليها وأزمة الأوكسجين في مستشفى الناصرية العام قد أمات الكثير من الناس،

وكثيرا ما يموت الناس في ذلك الزمن، وتأتي مسحة[١] الموت لتخبرهم ان الميت غير مصاب بكورونا، وانما مات بسبب سوء التشخيص الطبي، وتناول الأدوية الخطأ، يااللمفارقة القاتلة... ومر شهر تموز بجوه الحار كجهنم المتصوّرة، إذ كان قد حل فصل الصيف الحار في المدينة، وفي العراق أيضا، وكانت السماء تتلون بلون أبيض يعكس لون بقع الغيوم البيضاء الخالية من ماء المطر وهي تمر من غرب المدينة الى شرقها لتجعل الجو يلتهب بالحرارة التي تقلل ما فيه من أوكسجين فيصعب التنفس. سخنت أوراق الأشجار والشجيرات المحيطة بتمثال الحبوبي المتوكأ على عصاه. والشمس بدأت تنزل لتحرق من تقع عليه. وأصبح إسفلت الشارع يسخن فيصعد بخار الإسفلت ويدخل أنوف السائرين عليه. وشعت المدينة بضوء وحرارة شمس الصيف الحارة، فأصبحت تطاردهم أنّى ذهبوا، فراحوا يبحثون عن الظل ليحتموا به، خوفا من أن تضربهم الشمس بسياطها، فيكون عندهم تايفوئيد بدلا من كورونا، الاثنان قاتلان، وبدأت عناقيد الرطب[٢] تمتلئ بها محلات الخضروات والفواكه. وكانت المدينة تريد أن تنسى مصابها الكبير في

١ - مسحة: اشارة الى المسحة الطبية التي تأخذ من المشتبه به في اصابته بمرض كورونا.

٢ - الرطب:نوع من البلح.

حرارة الشمس، والناس تتمنى أن تهب ريح السموم[١] فتعقم بحرارتها النفوس والأجساد، إلّا أنها لا تنسى من فقدتهم من الأحبة والأعزة على قلوب أهلها. وقد زادت المبالغات، وكثرت القصص الكاذبة، والحكايات الخرافية، عن ضحايا كورونا، وكيف أن السيد فلان، والسيد علان، كانا سببا في شفاء الكثير من مرضى كورونا، لكن أغلب الناس قد انتبه إلى هذه المزايدات المفضوحة التي يبثها أزلام الأحزاب الإسلامية بعد أن أقترب موعد الانتخابات وهم يريدون جمهورا يؤيّدهم. وكانت عائلة الحاج ريحان أول من حاولت أن تضمّد جراحها ولكن غصة بالحلق بفقد كبيرهم كانت مستعرة كالجمر المتقد، وكان ابنه أحمد ما زال يلوم نفسه، وما زالت نفسه كَدَرَة، والبكاء مستمرا، والدمع لا ينقطع، كالفتى القروي، شرّاد، الذي لام نفسه على سماعه كلام الملّا، وترك كلام رحيم الموظف الصحي، إلّا ان أنمار وأخته نوال، وشباب ساحات الثورة في بغداد والمحافظات، كانوا متفائلين بالتظاهرة المليونية التي كانوا يعدّون لها عند انتهاء زمن كورونا.

١ - ريح السموم: وهي ريح حارة وجافة.

كان آخر منظر رأته عائلة الحاج ريحان بعد أن اصطحبوا والدهم معهم إلى البيت بعد أن غادره السعال، والحمى العالية، وعادت صحته كما كانت، هو منظر كرافانات الحجر الصحي، وبناية مستشفى الناصرية العام وهي تستقبل بعض المشتبه بهم بالإصابة بفيروس كوفيد/١٩، ودخان أسود يخرج من مدخنة في المستشفى لحرق الملابس والمستلزمات الشخصية لمن خرج من الحجر الصحي، وهي تسبح بأشعاعات شمس تموز الحارة. خرجوا من الباب وكأنهم خرجوا من سَم الخياط الضيق إلى الهواء المنعش، أو أنهم مثل أبطال مسلسل تلفزيوني ينهضون من القبور.

كانت المدينة التي تعيش فيها عائلة الحاج ريحان تقع على التخوم الأمامية للصحراء الغربية الممتدة حتى الحدود العراقية السعودية، عادية ككل مدن الجنوب العراقي منذ السومريين إلى يومنا هذا، مناخها قاري، بارد شتاءً وحار صيفاً ، ومغبرة بالتراب في أغلب فصول السنة، حتى سمّاها بعض ظرفائها "مدينة الغبار" على وزن "مدينة الضباب". وبالرياح التي تهب عليها في ما يسمى فصل الخريف، وفي فصل الصيف، والمحملة بذرات التراب والرمل الصحراوي الناعم، خاصة في فصل الصيف الحار جدا والذي يصعب فيه أخذ شهيق نقي براحة تامة،

والعيش براحة جسدية ونفسية إلّا بتكييف هواء المكان الذي يرغب الشخص البقاء فيه، ورغم ذلك فهي مدينة جميلة في عيون أهلها، وهادئة بهدوء أحلام ناسها الطيبين. كان كل شيء يسير في المدينة بهدوء وسكينة، فما زالت العصافير تطير منخفضة لترى وجوه أهلها المبتسمة، على الرغم من وجود غلالة شفيفة من الحزن الدائم من عصر سومر إلى يومنا هذا. والشمس ما زالت تشرق على شوارعها وسطوح دور أهلها في الصيف، وتقوم بتدفئتها في الشتاء، وما زال ناسها يحبّون ويكرهون. ويموت أهلها في أوقات موتهم. وسوق المدينة ما زال مكتظا بالرواد من النساء والرجال. وصوت الآذان يرفع فجرا، وفي وقت الظهر، وحين تغيب شمس ذلك اليوم. وما زال محل أحمد ابن الحاج ريحان التجاري فيه حركة المتبضعين وهم يضعون الكمامات البيض ويرتدون القفازات الزرق بأكفهم، على أشدها صباحا ومساء، حيث يبيع كل أصناف المواد الغذائية الطازجة، والمعلّبة، والجافة، والسائلة. وما زالت "الستوتات" تدور بين الأحياء السكنية وأصحابها يصيحون، ماءRO [1]، أو فاكهة، أو مخضرات، أو من عنده عتيق للبيع. وما زالت موسيقى بائع الغاز ترسل

١ - ماء R.O : مياه مالحة تصفى لتكون صالحة للشرب بطريقة التناضح العكسي أو الأسموزية المعاكسة (وأسمها ***Reverse Osmosis*** و يعرف بالاختصار ***RO***).

صوتها الحزين وهي تتبّه نساء البيوت عليه. انها مدينة حيّة تعيش في كل العصور منذ أور حتى البطائح إلى الناصرية فذي قار.

ستبكي الحاجّة أم أحمد بصوت يشبه إصطدام آنية النحاس، على رفيق حياتها الحاج ريحان، بدموع ولا أي شمس تكفي لتجفيفها، وهي تقول:

– إنه غضب من الله على الناس لأنهم تركوا الآخرة واهتموا بالدنيا فأصاب المؤمن وغير المؤمن. وكانت تقصد بالرجل المؤمن زوجها الحاج بعد أن أخطأت التعبير، وقد كانت أن نذرت لوجه الله خروفا أذا شفي زوجها وابنها، ومات زوجها، وشفي ابنها، وظلت حائرة، وتساءلت: هل توفي بنذرها أم لا؟

وسيبكي أحمد ابن الحاج ريحان وتحرق الدموع خديه الممصوصين بسبب إصابته بالوباء، وهو يقول:

– لا تفيد مع هذا الوباء كل الأدعية، والنذور، والحروزة[1]، وبساق السيّد.

١ - الحروزة: جمع حرز، وهو تعويذة تكتب لشخص مريض، أو محب ولهان.

وستبكي زوجة أحمد، كريمة العين، عمها الحاج ريحان بدموع حارة وهي تنزل من عينها السليمة، وفي الوقت نفسه تقول لنفسها وهي في مطبخ الدار تعد طعام الغداء لعائلتها:

– الحمد لله إن زوجي قد شفي، ورحم الله عمي.

سأل أنمار أخته نوال بالمحمول، والسيارة متجهة إلى بغداد، وياقة قميصه الناصع البياض مفتوحة يملأها الهواء الذي يهاجم السيارة وهي تلتهم الطريق إلتهاما:

– كلكم بخير؟

قالت نوال مخاطبة أنمار بالمحمول، وهي تنشّف جسمها من البلل بعد أن خرجت من الحمام:

– كلنا بخير.

كلهم سيبكون، وكلهم سيتحدثون عن مآثره، وكلهم سيثوّبون[1] له أنواع المأكولات، وأنواع الحلويات، وأنواع العصائر، والشرابت، إلّا أن جميعهم قد قرروا بلا اتفاق، انّهم سيغلقون فمهم عند الحديث عن السبب الذي

---

١ - يثوّبون: من الثواب، وهو أكل يعمله أهل الميت ويوزع على الجيران ليقرأوا الفاتحة على الميت.

أوصل الفيروس له، إحتراما للوالد، وعلينا أن لا نحزن كثيرا، فأيام السعادة قادمة.

***

صدر للمؤلف:

١ – القصص الشعبي العراقي من خلال المنهج المورفولوجي – دراسة – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة -١٩٨٦ .

٢ - أبابيل – رواية – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ١٩٨٨.

٣ - طائر العنقاء – قصص قصيرة – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ١٩٨٨.

٤ - طريق الشمس – رواية – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة - ٢٠٠١.

٥ - الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – دراسات – ط١ - اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٠.

٦ - الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – طبعة ثانية مزيدة ومنقحة – معهد الشارقة للتراث – الشارقة - ٢٠١٩.

٧- الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية – طبعة ثالثة مزيدة ومنقحة –دار الورشة – بغداد - ٢٠٢٠.

٨- الذئب والخراف المهضومة – دراسات في التناص الابداعي – بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة- ٢٠٠١.

٩ – الجنس في الرواية العراقية – دراسات - دار المتن للطباعة والنشر – ٢٠١٨.

١٠ - أوراق المجهول - رواية – دار المتن للطباعة والنشر - ٢٠١٩.

١١ – التشابيه – رواية – مطبعة الحسام – ذي قار– ٢٠١٩.

١٢ – نخلة خوص سعفها كثيف – رواية – دار فنون – القاهرة – ٢٠٢٠.

١٣ - القصص الشعبي العربي – دراسات وتحليل – دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد-٢٠٢٠.

١٤ - رؤى الأسلاف "قراءة في الأساطير" – دار الورشة – بغداد - ٢٠٢١.
١٥- الكمامة البيضاء والقفاز الازرق – رواية – شركة مانديلا للنشر والاعلان – تشاد – ٢٠٢١.
١٦- الأمثال الشعبية العراقية كما تضرب في الناصرية – مطبعة الحسام – ناصرية – ٢٠٢١.
١٧ – رؤى تشكيلية – قراءة في الخطاب التشكيلي العراقي والعربي – الكتاب الأول - مطبعة الحسام – ٢٠٢١.
١٨ – رؤى تشكيلية – تشكيل وشعر – الكتاب الثاني - مطبعة الحسام – ٢٠٢١.
١٩ – شاهد من الشعر العامي الحديث – مطبعة الحسام – ٢٠٢١.
٢٠ – تجليات الاسطورة – قصة يوسف بين النص الاسطوري والنص الديني. دار ابن النفيس – الاردن – ٢٠٢١.
٢١- اسطورة "جودر" العربية "دراسة في الأدب السردي العربي"– مطبعة الحسام – ٢٠٢٢.
٢٢ - النخيل يموت واقفا – مجموعة قصص قصيرة جدا – مطبعة الحسام – ٢٠٢٢.
٢٣- أحلام المغني الصغير – مجموعة قصص قصيرة – مطبعة الحسام – ٢٠٢٢.
٢٤ - الخيانة العظمى - أشعار التوراة وجذورها العربية القديمة- " مقاربة نقدية جديدة بين ترجمات الربيعي والنصوص التوراتية الرسمية" – دار الرافدين للطباعة والنشر – ٢٠٢٢.
٢٥ - السقوط والصعود في القصص الشعبي - "نحو منهج لدراسة القصص الشعبي" دار الشؤون الثقافية العامة – ٢٠٢٢.

***

- حصلت الطالبة "فاطمة فروزان" من جامعة الامام الخميني العالمية في مدينة قزوين على الماجستير بترجمة كتاب ألف ليلة وليلة وسحر السردية العربية الى اللغة الفارسية عام ٢٠١٣.

***

شارك في المجاميع القصصية التالية:

١ - النهر يجري دائماً – نصوص ابداعية فائزة في المسابقة الابداعية لوزارة الثقافة لعام ٢٠٠٠ – مع مجموعة من الأدباء - بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة –٢٠٠٠.

٢– ترانيم الحرف – قصص قصيرة جداً – مشترك - دار المتن للطباعة والنشر – ٢٠١٨.

٣- ترجمت بعض قصصه الى اللغة الانكليزية وصدرت في كتاب "ظلال سومرية" للق.ق.ج.

٤ – أنطولوجيا القصة القصيرة جدا العراقية المعاصرة – اعداد عبد الزهرة عمارة – ج١ – دار أمازجي للطباعة والنشر – ٢٠٢٠.

***

شارك مع مجموعة من النقاد في الكتب التالية:

١ – كيف نكتب رواية ناجحة – من أعداد الروائي كاظم الشويلي – ٢٠١٩.

٢ - مفتتح خيارات الأسماء لكائنات سجال الركابي – تحرير اسماعيل ابراهيم عبد – مع مجموعة من النقاد – ٢٠١٩ .

٣ – فن الرواية في سرديات زيد الشهيد – تقديم واعداد د. فوزية لعيوس الجابري - مع مجموعة من النقاد - ٢٠١٩.

٤ – الخطاب الثائر لسانيا ونقديا – اعداد د. خالد حوير الشمس – ٢٠٢٠.

٥– ارتحالات عوليس- دراسات عن رواية قنزة ونزة – مع مجموعة من النقاد -٢٠٢٠.

٦ - الرحيق_المستعاد – قراءات نقدية في شعر عبد الأمير خليل مراد - كامل_حسن_الدليمي – الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق – ٢٠٢١ .

***

كتب جاهزة للطبع :

- كائنات تفكر - انسنة الكائنات في القصص الشعبي العربي.
- تقشير البيضة – تشريح القصة الشعبية .
- محفزات المتلقي - "نحو رؤية جديدة لاستجابة المتلقي في القصص الشعبي".
- الطبيعة في شعر أبي تمام. بحث لنيل شهادة الدبلوم العالي.
- ميتا القصيدة – قراءات في القصيدة العربية القديمة – دراسات.
- رشيد مجيد... إنساناً وشاعراً - دراسات منشورة في الصحف والمجلات العراقية.
- إشكاليات الخطاب النقدي الأدبي العربي المعاصر- دراسات أدبية.
- صياغات شعرية في كسر رتابة الشعر- "دراسة في شعر عباس ريسان".
- اسئلة السرد- (دراسات في القصة القصيرة والرواية).
- اسئلة الشعر - (دراسات في الشعر).
- ألهاوية – رواية.
- الخزاف الماهر – رواية.
- بستان الحاج عبود - رواية.
- الكتاب المفتوح – رحلتي الى الاتحاد السوفيتي – أدب الرحلات.

***

- الجائزة التقديرية عن قصة (الموت حياة) في المسابقة الابداعية لعام ١٩٩٢
- الجائزة الاولى عن قصة (النهر يجري دائماً) في المسابقة الابداعية لعام ٢٠٠٠.
- الجائزة الثالثة عن رواية (طريق الشمس) في مسابقة الرواية لعام ٢٠٠١.
- الجائزة الثانية بمسابقة مانديلا للرواية عن رواية "الكمامة البيضاء والقفاز الازرق"– ٢٠٢١.

***